# الفصل السابع
# البيئة الطبيعية وخصائص شعر الأطلال

obeikandl.com

obeikandl.com

# الفصل السابع
# البيئة الطبيعية وخصائص شعر الأطلال

الشعر شاهد حقيقى حى على تأثر مبدعه بأحداث عصره، وصور بيئته الزمانية والمكانية، فالشاعر لم يكن محايداً أو منعزلاً عن واقعة الطبيعى والاجتماعى والتاريخي.

فقد كان الشعر عند العرب ديوانهم ومجمع أخبارهم ولم يكن لهم علم أصح منه. فقد دلل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب.

ولهذا قيل: إن الشعر الجاهلى " لم يَسْمُ إلى الذروة العالية التى بلغها إلا لكونه تنفسياً صادقاً وملتهباً وتصويراً لبيئة الجاهليين "[1].

فالشاعر الجاهلى فى رؤيته الفنية ولغته الشعرية عالم بالبيئة الواقعية الصامتة والمتحركة براً وبحراً مدركاً لتأثير ملامحها بدقة لا يرتقى إليها غيره، ويعبر عنها بعاطفة لا يملكها غيره.

فالشعر الجاهلى بهذا المفهوم وثيقة جمالية أولاً. ووثيقة اجتماعية وتاريخية وجغرافية وطبيعية ثانياً. ولذلك أصبحت القصيدة الشعرية شاهداً يحكى أبعاده تلك ويصبح الشاعر المبدع الخلاق لهذا الشاهد المؤثر. فهو شاهد لا يستغنى عنه الدارسون فى مجالات البحث العلمى كلها، وفى مقدمتها دراسة البيئة الطبيعية. ولهذا كان الشعر الجاهلى مادة أصلية لمعرفة معالم البيئة الطبيعية وتشكل فى ضوئه دراسة فى الأدب الجغرافى والطبيعى والتاريخي. فنحن ننقل بواسطته وحى البيئة الصامتة والمتحركة.

فالأدب الجغرافى والتاريخى كان موضع اهتمام الكثير من الباحثين

---

[1] راجع الشعر الجاهلي، منهج فى دراسته وتقويمه د. محمد النويهى، ص25 ومابعدها.

وكان - أيضاً - موضع اهتمام العلماء القدامى. كالهمزانى فى "صفة جزيرة العرب"، وياقوت الحموى فى "معجم البلدان"، و أبى عبيد البكرى فى "معجم ما استعجم" وغيرهم وفضلاً عن ذلك كله فقد ترددت أصداء الحديث عن البيئة الطبيعية والجغرافية فى الكثير من الدراسات قديماً وحديثاً.

## أهمية البيئة الطبيعية:

إن دراسة البيئة فى الشعر تعد من أصعب الدراسات الإنسانية، لأن الشعر بالدرجة الأولى صورة فنية جمالية، ولأن تلك البيئة الصامتة والمتحركة لم تعد كما كانت عليه فى ظروفها الزمانية والمكانية.

والمتأمل فى أشعار الجاهليين يرى نفسه أمام مادة عظيمة كماً ونوعاً صدحت بالحديث عن البيئة فى فلواتها، ووديانها وجبالها وسهولها ونباتها وشجرها ومياهها، ورياحها، وحيواناتها الأليف والوحشي، براً وبحراً، وترتشف من هذه المادة دفقاً من الإيحاء الفكرى والاجتماعى والعاطفي.

فالبيئة هيمنت على مشاعر العربى وأفكاره وتدخلت فى تكوينها وصياغتها حسب ما تقتضيه ودفعت به إلى حياة تتسق مع ما تفرضه عليه. فكان منفعلاً بها وعنها يصدر فى كل شيء. ومن هنا وجدنا الشعر الجاهلى فى بلاد العرب كلها يشترك فى جملة من الظواهر ليست متماثلة مع الشعوب الأخرى فى الشكل والمضمون.

ولا ينكر أهمية أثر البيئة الطبيعية إلا معاند أو مستكبر فالجاهلى رسخ حدود عاداته وقيمه، وربما عواطفه فى إطار ما ألفه من

ضروب البيئة الطبيعية ورسمها فى لغة تصويرية موحية بأصولها، ومتلونة بذاته فى وقت، ومعبرة عن تجربته الثقافية والاجتماعية والعاطفية.

## ظاهـــرة النجعـــة:

لعل أهم ظاهرة فرضتها البيئة الطبيعية على حياة العرب ظاهرة النجعة وكانوا ينتقلون من محاضرهم التى اتخذوها وطناً لهم إلى منازل بالبادية تسعة أشهر طلباً للكلأ والماء وكانت رحلتهم تبدأ نحو الرابع عشر من آب (أغسطس)، ولا يرجعون إلا بسقوط نوء الهقعة لتسع خلت من حزيران (يونيو)[1].

وقد كانت القبائل العربية تنزل فى تلك المناجع فى أخلاط شتى حتى صار لفظ الخليط فى الشعر الجاهلى علماً لذلك؟ وقد ردده الكثير من شعرائهم.

**يقول عبيد بن الأبرص:[2]**

**بان الخليط الألى شاقوك إذ شحطوا**
**وفى الحدوج مهاً أعناقها عُيُطُ**

**ويقول بشر بن أبى خازم:[3]**

**بان الخليط ولم يوفوا بما عهدوا**
**وزدوك اشتياقاً آية عبروا**

**ويقول المسيب بن علس:[4]**

---

(1) الأنواء لابن قتيبة، ص100: 104.
(2) ديوان عبيد بن الأبرص، ص83.
(3) ديوان بشر بن أبى خازم، ص54.
(4) شعراء النصرانية للويس شيخو، ج3، ص354.

بان الخليط وُرفِّع الخـــرق

ففـؤاده فى الحى معتلــق

ويقول زهير:[1]

بان الخليط ولم يأووا لمن تركـوا

وزودوك اشتياقاً أيـة سـلكوا

ويقول . أيضاً .:[2]

إن الخليط أجدَّ البين فانفرقا

وُعلِّق القلب من أسماء وما علق

ويقول بشامة بن الغدير:[2]

إن الخليط أجدوا البين فانجـردوا

وأخلفوك عدى الأمر الذى وعدوا

والخليط: الصديق المخالط أو القوم الذين أمرهم واحد وبينهم ألفة، وقد كثر ذكره فى شعر العرب، وإنما كثر ذلك فى أشعارهم لأنهم كانوا ينتجعون أيام الكلأ، فتجتمع قبائل شتى فى مكان واحد. فتقع بينهم ألفة، فإذا افترقوا ورجعوا إلى أوطانهم ساءهم ذلك فقد يكون ذلك عادة من عاداتهم أو هو سلوك اجتماعى يتبعونه فى مثل هذه المواقف من حياتهم.

وتظل المقدمة الطللية أكثر مقاطع القصيدة الجاهلية دلالة على مدى تأثير البيئة البدوية أو حياة التبدى فى أصحابها، وبرز هذا التأثير واضحاً فى وحدة العادات والتقاليد والقيم واللغة والثقافة والمشاعر.

---

(1) شرح شعر زهير، ص127.

(2) شرح شعر زهير، ص38.

(3) لسان العرب لابن منظور، مادة "خلط ".

فكان القلق من همّ الحِلِ والارتحال هماً عاماً للجميع فى أنحاء البلاد، ولعل المثقب العبدى من أحسن من تحدث عنه فى قوله:

**إذا ما قمت أرحلها بليل تأوه آهه الرجل الحزين**

**تقول إذا درأت لها وضينى أهذا دينه أبدا ودينـي؟!**

**أكل الدهر حَلٌّ وارتحـال أما يبقى على وما يقيني؟**[1]

لقد أبدع المثقب أيما إبداع حين جعل ناقته تكابد المعاناة القاسية من الارتحال ويستثيرها الحزن ويستبد بها فى كل مرة تشد الرحال إلى مناجع جديدة فندرة المياه وقلة الموارد ما تركا لها طمأنينة. ولا راحة تستظل بها لفترة طويلة، ولهذا كان قلقها الدائم.

وظاهرة النجعة فرضت على القبائل العربية قانون القوة، فاحتل عندها المرتبة الأولى على الصعيد الفردى والاجتماعي، وقلة الموارد الطبيعية والمائية أباح فى شريعتهم الغزو والسلب وافتخروا بذلك ومن هذا انتقل الصراع من أجل البقاء إلى حياة البشر. بعد أن كان مقتصراً على الطبيعة الحية.

وأرخ الشعر الجاهلى لهذا الصراع حول المناجع والمنازل وإن كانت القبائل قد عرفت نمطاً من المواطن الخاصة بها، ومثل هذا وجدناه فى أشعارهم، فهذا رجل من قبيلة عبد القيس التى استوطنت البحرين وعمان يحدثنا عن مظاهر فروسيته التى جعلته ينتصر على خصمه، ولو جبن أو ضعف لنال منه خصمه فقال:

---

(1) المفضليات، ص291، 292.

فلم أنكل ولم أجبن ولكـــن يممت بها أبا صخر بن عمـرو
شككت مجامع الأوصال منـــه بنافذة على دهش وذغـر
تركت الرمح يبرق فى صلاه كأن سنانه خرطوم نسـر[1]

أما المفضل النكرى فلم يكتف بتصوير ثبات قومه وشجاعتهم وإنما رسم صورة مماثلة لأعدائهم، وحين أكد فروسية هؤلاء كان يمعن فى إكبار ما فعله قومه وافتخاره بنصرهم على ند قوى وشديد فصور كثرة الجيش واندفاعه مشبهاً إياه بالبرد الكثيف العظيم المنحدر من السماء، وكأن قومه سيلاً جارفاً يغمر جنبات واد كبير فقال:

فانك لو رأيت غداة جئنـا ببطن أُثال ضاحية نسـوقُ
..... .....
فجاؤوا عارضا بردا وجـئنا كسيل العرض ضاق به الطريق
مشينا شطرهم ومشوا إلينـا وقلنا: اليوم ما تُقضى الحقوق[2]

فالعرض واد مشهور فى اليمامة، وصورته أيام الشتاء قفزت إلى مخيلة الشاعر ليظهر وطء قومه فى أعدائهم.

والخيل أداة الفارس الأولى، ولهذا ظهرت وجهاً من وجوه الصراع فنسب العربى فعله إليها، وهى وجه آخر من وجوه البيئة الجاهلية وقيمتها.. وهذا ما عرض له أحد شعراء عبد القيس.. فنقل لنا صورة بديعة لفرسه قائلاً:

---

(1) المصدر السابق، ص71.
(2) الأصمعيات، ص200، 201.

**رميتهم بوجرة إذ تواصـوا .. ليرموا نحرها كثبا ونحري**
**إذا نفذتهم كـرت عليهـم .. كأن فلوّها فيهم وبكري**[1]

فالخيل حصن العربى ودرعه، يحتمى به من ضربات السيوف وطعنات الرماح.. ولهذا اختار منها الأصيل العتيق وصنع له شجرة أنساب، وكرمه على غيره، ولا عيب عنده أن يؤثره على نفسه وأهله فى أوقات العسرة بالرعاية واللين.. وعليها تطلب الثارات والرزق، ولهذا كانت العرب يهنئ بعضها بعضاً.

ولو تأمل أحدنا الشواهد الشعرية السابقة ونظائرها فى الشعر الجاهلى لتأكد له أن الشعراء رسموا خارطة جغرافية لمواضع كثيرة من أرضهم.. فهم يحركون الجيش من موضع إلى آخر، ويعرضون لما جرى فيه من أحداث وأيام.

## بيئة منطقة الخليج :

امتزجت البيئة الطبيعية لمنطقة الخليج براً وبحراً بوجدان أبنائها، وظهرت بقوة فى حياتهم وفنهم أينما توجهوا بل أنهم عشقوها على قسوتها حراً أو برداً وريحاً.

فمنطقة الخليج العربى تمتد من بحر العرب (اليمن سابقاً) جنوب عمان وتتجه شمالاً محاذية الساحل الغربى للخليج العربى حتى تصل الأبلة فى جنوب البصرة من العراق، وتشتمل على قسمين: الأول يشكل عمان (عمان والإمارات العربية المتحدة ـ عدا أبو ظبى) فهى تدخل بالقسم الثانى (البحرين) وتسمى قديماً (بينونة) فالبحرين تمتد من بينونة حتى

---

(1) المفضليات، ص70.

سيف كاظمة، وتشكل أبو ظبى وقطر ورمل بيرين والبحرين، والمنطقة الشرقية للملكة العربية السعودية والكويت.

وتتصل المنطقة من الغرب (ابتداء بالجنوب وانتهاء بالشمال) بالربع الخالى ووبار ورمل بيرين والدهناء ثم النفود[1].

وأَطلَقَ على عمان اسمها هذا قبائل الأزد التى نزلت فيها وكانت منازلهن القديمة فى اليمن فى وادى مأرب تسمى بهذا، بينما عرفت لدى الفرس باسم مرون، وقد ورد فى قول الشاعر[2]:

**ومرون يا صاح خير بلاد .. بلاد ذات زرع ونخيل**

أما البحرين فأشهر أسمائها، ويطلق عليها اسم هجر، (باسم قصبتها)، والأحساء والخط باسم بعض المواضع فيها، فضلاً عن أن مصطلح الخليج كان معروفاً لدى الجاهليين لمنطقة البحرين، كقول الشاعر عمرو بن ثعلبة الشيباني:[3]

**ولو سرتم لى بالخليج لأجلها ركبت بها فوق السفين على البحر**

وظل اسم البحرين أكثر شيوعاً فى بلاد العرب يتردد فى الشعر الجاهلي، كقول الشاعر عامر بن الطفيل الذى افتخر فيه بانتصار قومه بنى عامر على قبيلة عبد القيس المستقرة فى البحرين، ونالوا منها سبياً كثيراً:[4]

**وقد نلنا لعبد القيس سبيا :. من البحرين يقتسم اقتساما**

فمنطقة الخليج امتازت بالاتساع والبعد والتنوع فى الفلوات

---

(1) معجم ما استعجم، ج1، ص81، ج2، ص503.
(2) قصص وأخبار جرت فى عمان، عبد المنعم عامر، ص25.
(3) اختيارات المفضل الضبى، ج2، ص589.
(4) ديوان عامر بن الطفيل، ص70.

والسهول والوديان والجبال والفرض البحرية ومغاصات اللؤلؤ، واتصفت أرضها بالخصب قياساً بباقى بلاد العرب فازدهرت الزراعة وكثرت الأشجار المثمرة ولا سيما النخيل:[1]

وكانت صحار ودبا وتوأم (العين حالياً) من أشهر مراكز عمان، وكل منها تتسم بسمات الازدهار والنهضة المدنية والعمرانية.

أما أشهر مراكز البحرين فكانت بينونة (أبو ظبى اليوم) وقطر وهجر والصفا والمشقر وجواثا وثاج، والجفار (كاظمة).

وأهم فرضها البحرية الخط والعقير وداربن والقطيف وجزيرة أوال المعروفة فى عصرنا باسم جزيرة البحرين.. ولها أسماء قديمة أخرى[2].

أما المياه فهى غنية على نحو ما، وقد اشتهرت عدد من العيون فيها، وأهمها عين محلم التى ذكرها الشعراء، وتفصل بين المشقر والصفا وهما قصبتا هجر، ومحلم بن عبد الله زوج هجر بنت المكفف التى سميت قرية هجر باسمها، ومن ذلك قول بشر بن أبى خازم:

**كأن حدوجهم لما استقلوا ∴ نخيل محلم فيها ينوع**

وظهرت منطقة الخليج منذ القديم فى الشعر الجاهلى واضحة الحدود والملامح الطبيعية، وبرزت صورتها شامخة تتحدث عن مواقعها وخصوبتها وتجارتها وصناعتها، فالمنطقة بحكم موقعها الجغرافى صلة

---

(1) الكامل فى التاريخ 197/15، الأزمنة والأمكنة 163/2.
(2) معجم البلدان لياقوت.

الوصل بين بلاد العرب والهند وفارس والحبشة[1].

وهذا كله هيأها لأن تقوم بمهمات لا تضطلع بها غيرها من المناطق، مما جعلها دائماً محط الأنظار التى تتوجه إليها طمعاً فى بيئتها الطبيعية الغنية ومنافعها الكثيرة للجيران من فارس وللقبائل العربية التى أدركت فيها خير موطن، ولهذا عرفت كثيراً منها فى هجرات متتابعة كان أعظمها قبل سنة 309م[2].

ومما يلاحظ على هذه الهجرات أن القبائل العربية تأتيها من اليمن وتهامة والحجاز ثم تتجه شمالاً إلى العراق والشام ومنها ما يتخذ المنطقة مستقراً دائماً له، وفق مبدأ قانون القوة، فالأقوى يطرد الأضعف، ويحل مكانه، وأن بعضها فضل التوجه نحو الشمال كما حدث مع بطون من الأزد وبكر وتغلب[3].

ولعل أشهر من استوطن الخليج قبيلة عبد القيس برمتها، وبطون من الأزد وبكر وتميم كبنى سعد بن زيد، مناة بن تميم، وغيرها كبنى سامة ابن لؤى الغالبى القرشي[4].

وتداخلت سكنى القبائل فيما بينها، وتارة تكون المنازل دولة بينها فى عمان والبحرين.... ففى بينونة وقطر - مثلاً - شاركت بطون من عبد القيس (كالدليل وعامر بن الحارث ومحارب بن عمرو) بنى سعد

---

(1) المحبر 265.
(2) المفصل لجواد على، ج1، ص566 - 569.
(3) العقد الفريد، ج3، ص29 - 63.
(4) الاشتقاق 324، 325.

من تميم، وتميم اللات من الأزد[1].

ولو تعقبنا صور ذلك فى الشعر الجاهلى لوقعنا على جملة منها فى إطار أحاديث الشعراء وأغراضهم كقول الأعشى:[2]

**فان تمنعوا منا المشقَّر والصفَّا**

**فأنا وجدنا الخط جمًّا نخيلها**

**وإن لنا دُرْنَى فكل عشـــية**

**يُحْط إلينا خمرها وخميلها**

وهذا عمرو بن أسود العبسى يخبرنا أن البحرين، وقصباتها لم تكن خالصة لقبيلة واحدة قبل الإسلام[3]، فقال يفتخر بانتصار قومه عبدالقيس على إياد وإخراجها من هجر، وإبعاد بكر عن منازلها:

شحطنا إيادا عن وقاع وقلصت .. وبكرا نفينا عن حياض المشقر

وروى لنا المسيب بن علس قصة استيطان بنى سامة بن لؤى فى عمان وكانت الأزد أول من نزلها، فقال:[4]

**فلما أتى بلداً ســره  به مرتع وبه معزب**

**وحصن حصين لأبنائهم  وريف لإبلهم مخصب**

ومن هنا يصبح لزاماً علينا التوقف عند صورة البيئة الطبيعية البرية والبحرية، الصامتة منها والمتحركة، كما صورها الشعراء

---

(1) الكامل لابن الأثير، ج1، ص223، 378.

(2) ديوان الأعشى قصيدة 23، ص227.

(3) المعارف لابن قتيبة، ص93: 95.

(4) معجم ما استعجم، ج1، ص47: 49. وراجع أيضاً شعراء النصرانية للويس شيخو، جـ3/355.

الجاهليون، وعرضوها فى طرائفهم الملبية لغاياتهم، علماً بأن المقدمات الطللية ومشاهد الصحراء وحيوان الوحش احتفلت أيما احتفال فى عرض تلك الصور على مساحة الشعر كله.

**أ - البيئة الصامتة :**

اتضح لنا مما تقدم أهمية البيئة الطبيعية فى الحياة والفن، وبرزت بيئة منطقة الخليج العربى بالتنوع والاتساع وشهدت أرضها حياة النجعة ونمطاً من المدينة فى آن معاً.

وتركت هذه البيئة آثارها الواضحة فى أبناء الخليج وفى طليعتهم الشعراء، فحمل هؤلاء حساً مرهفاً وهم يتحدثون عن الطبيعة الصامتة، والمتحركة بجبالها ووديانها وسهولها وفلواتها وحرها وقرها ومطرها ومواقعها ومنافعها وشجرها ونباتاتها... فأينما لاحت لهم صورة ممتزجة بحياتهم ومشاعرهم جعلوها مادة لغتهم فتأثروا وآثروا.

وكذا كان الشاعر الجاهلى يتغنى ببيئته الطبيعية ويسوق ذلك فى إطار هدفه الذى يسعى إليه فى موضوعات قصيدته، ولهذا حفلت المقدمات الطللية ومشاهد الرحلة والحيوان خاصة بصور كثيرة ومثيرة للبيئة الطبيعية، فهذا المثقب العبدى يحدثنا عن مشهد الرحلة بنشوة عامرة بالمشاعر فيقول:

**لِمَنْ ظُعُنٌ تُطالِعُ من ضُبَيْبٍ  فما خَرَجَتْ من الوادِى لِحينِ**
**مرَرْنَ على شَرَاف فذات رجل  ونكَّبْنَ الذَرانح باليَمينِ**

عَلَوْنَ رِبَاوَةً وَهَبَطْن غَيباً فَلَمْ يَرْجِعْنَ قَائلةً لِحينِ[1]

فالشاعر يسوق فى سرد تتبعى رحلة الظعائن من موضع إلى موضع وهى تصعد ربوة أو تغيب فى واد فيخلع قلبه من جنبه ظناً منه أنه لم يعد يراها... فعينه تظل ترصد مرورها فى (ضبيب، وشراف، وذات رجل، والذرانح) وهى مواضع لبكر بين كاظمة والبحرين.

فهو يمزج بين الأثر الفنى والتعبير عن رحلة صاحبته فى مواضع محددة، وكأن الفن صورة للواقع النفسى والجغرافى وقد يختلف عنه ابن بجدته الممزق العبدى فى لوحته الفنية العاطفية، حين توجه إلى النعمان بن المنذر... فالحديث عن المواضع اتسع ليشمل بعض المناطق المجاورة للحيرة كالرحى وقراقر، إذ مرت فيها الظعائن حاملة هموم الشاعر من مناطق الخليج العربى التى تعانى رسف عامل النعمان وجهالاته، فقال:

صحا عن تصابيه الفؤاد المَشَوَّقُ وحان من الحى الجميع تفرقُ
وأصبح لا يشفى غليل فؤاده قطارُ السَّحابِ والرَّحيق المروقُ
لدن شال أحداج القطين غُديَّةً على جَلْهَةِ الوادى مع الصبح توسقُ
تطالعُ ما بَيْنَ الرّجى فقراقِرِ عليهن سربال السراب يُرقرقُ

فالممزق ربط بين الخوف الذى يمكن من تصدع الشمل بعد النجعة، والخوف الذى جعله عامل النعمان بن المنذر... وهذا هو الجديد فى الحديث عن الظعائن لدى شعراء المنطقة. فالشاعر رسم لوحة مثيرة

(1) المفضليات، ص288، البيت الثالث، ص289.

لرحلة الظعائن منذ أن رمت أحداجها وتوجهت مع انبلاج الصباح إلى صفحة الوادى لتصل ساعة الضحى إلى الرحى وقراقر والسراب يتلألأ، وكانت حركتها مجبولة بحركة النفس المرعوبة سواء من انقطاع الغيث، وتصوح النبات وجفاف الغدران أو من الظلم الذى روعه عامل النعمان بن المنذر على البحرين.. فأشاد بضلاله ورعونته وجعله نشر فساداً كبيراً. وإن لم يصلح النعمان ذلك، فإن خيل عبد القيس ستتجه إلى حيث ينبغى لها الاتجاه لقلع الظلم والفساد. فقال الممزق:

**فجالت على أجوازها الخيل بالقنا**

**تواضع من حَزْنَى جدود وتمرقُ**

**فَمنْ مُبْلغُ النعمانَ أنَّ أُسَيِّدًا**

**على العين تعتاد الصفا وُتَمرِّقُ**[1]

إن الحديث عن الرحلة كان غنياً بذكر المواضع والأحداث التى تجرى فيها، والهم أو القلق عند شعراء الخليج أصبح مزدوجاً، وقد كان منفرداً لدى شعراء الجاهلية.

فالمفضل النُّكْرىّ لم يكتف بالحديث الفنى الممتع والمثير لحركة الأحداث، ونقل المعركة من منازل قومه (فى عمان والخط وهجر والعقير) وإنما نقلها إلى ديار بنى سعد، مثلما نقل عامر بن الطفيل العامرى المعركة إلى حيث عبد القيس فى المرداء من هجر. فقال المفضل:

**كأنّ النَّبْلَ بينهم جراد -------- نكفّيه شآمية خَريـ**

---

(1) المفضليات، ص433، 434.

لَقينا الَجهمَ ثَعلبة بن سـيرٍ لدى الأعلام من تَلَعَاتِ طفلِ
أضر بمن يُجَمِّعُ أو يسوق ومنهم من أضج به الفُرُوقُ[1]

وعرض للفروق (وهو واد بين اليمامة والبحرين) ذكره عنترة فى حديثه عن معركة جرت فيه[2]، وينقلنا النص السابق إلى وجه آخر من وجوه البيئة الطبيعية وهو المناخ أو ما يعرف بالطقس، فالجزيرة العربية ولا سيما المناطق القريبة من الخليج عُرِفَتْ بالحر والقر، وراقب أهلها الرياح الكبرى الشمال والجنوب والصبا والدبور. وأطلق العرب على شهرى الشتاء الباردين (ملحان وشيبان)(ناجرا)، وجعلوا (الشتاء للبرد وقتاً، والقيظ للحر وقتاً)[1]، فالقيظ يأتى بالهاجرة التى تسفع الوجوه وتكوى الجباه كما يستمد من قول المثقب:

فقلت لبعضهن: وشُدَّ رَحْلِي ∴ لهَاجَرةٍ نصبت لها جبيني
لعلك إن صرمت الحبل منِّى ∴ كذاكِ أكوُنُ مصحبتى قَروني[3]

وبهذا تحدث الشعراء عن الحر والقر والمطر والجفاف فى معرض وصف الأطلال والرحلة وفى صور أخرى كثيرة.. ففى القيظ يقل الغذاء وينسب الماء، وتتعرض القبائل للغزو والنهب.. لهذا كانت الخيل حصن العربي، وهكذا ابن الخليج أحرص على خيله لأنه سيكون مطمعاً فى بيئته الطبيعية لغيره، وكان يؤثرها باللبن ويخصص إبلا لشرابها، ولو

(1) الأصمعيات، ص201.
(4) شرح ديوان عنترة، ص215، 216.
(3) الأنواء لابن قتيبة، ص162، 18، 109.
(4) المفضليات، ص289، 290.

بقى وبقيت أسرته من دونه كما يقول يزيد بن الحذاق الشني:[1]

**قصرنا عليها بالمقيظ لِقَاحَنَا ∴ رَبَاعَيةً وبازلا وسَدِيَسا**

وكذلك كان دأبه فى الشتاء، فهو يتعهد خيله بالرعاية والتدريب، فلم يتغافل عنها البتة كقول الشاعر من القصيدة السابقة:

**وَداوَيْتُها حتَّى شَتَتْ حَبَشِيةً ∴ كأنَّ عليها سُنْدُساً وسُدُوسَاً**

فالحديث عن الحر والقر لم يكن طويلاً ولا مقصوداً لذاته على عكس ما رأيناه عند الشنفرى مثلاً، وكذلك الوصف الذى ذكر فيه المطر والبرق والرعد لم يكن بالمستوى الفنى لدى بعض الجاهليين كامرئ القيس مثلاً.

أما الحديث عن الليل فيكاد يكون منعدماً فى شعر أهل الخليج، ولايقاس بأى حال بما كان لدى امرئ القيس، والنابغة وغيرهما.

وعلى الرغم من ذلك لانعدم وجود صورة هنا أو هناك لذلك كله، فثعلبة بن عمرو يصور لنا درعاً متلألئة فيقتنص من صورة الغدير الذى ضربته الريح مثلاً لذلك، ولكنه أضاف صورة أخرى إليها حين جعل السماء تدفع بشآبيب الغيث فى وقت الصيف، وقد أبرز لآلئ الماء هبوب ريح عليه، فقال:

**بيضاءَ مثل النهى رِيحَ ومَدَّهُ ∴ شآبيبُ غَيْث يَخْفِشُ ألأكُمَ صائف**[2]

فهذه صورة مركبة ونادرة فى ساعات الصيف الحار، فسحاب

---

(1) المصدر السابق، ص297.
(2) المفضليات، ص282.

الصيف مشهور لدى الجاهليين بالكذب لأنه يتراكم دون أن يغيث أحداً، ورياحه شديدة العصف تثير العجاج والغبار وتذهب فى كل وجه، وقد استمد المثقب العبدى من هذه الصورة الطبيعية صورة ما جرى بينه وبين صاحبته، فذهب ما بينهما من مودة فقال:

**فَلاَ تَعِدِى مَوَاعِدَ كاذباتٍ ∴ تَمُرُّ بها رِياحُ الصَّيْفِ دُونِى**[1]

ومما يلاحظ من شعر أهل الخليج فى وصفهم للمطر والريح والسحاب والبرق والغدارن. أن هذا الوصف وقع أكثره فى المقدمات الطللية، وامتزج بوصفهم للأشجار والنباتات والأزهار التى شهدتها منطقة الخليج.

وجروا فى هذه الطرائق على عادة شعراء الجاهلية غالباً فى إطار التعبير عن حياتهم ومشاعرهم، ولم تكن المقدمات وحدها تتسع للحديث عن البيئة الطبيعية، فأينما وجد الشعراء صورها الملبية لحاجاتهم النفسية وغاياتهم اقتنصوا منها ما يبعث التأثير والإيضاح.

وحظيت صورة الأشجار ولا سيما النخيل بأكثر تلك الصور وإن وقعنا على جملة من الصور المبدعة للنباتات والأزهار فالمفضل النكرى لم يكن ليغفل عن صورة الحريق الذى يشب فى أجمة من القصب، وقفزت هذه الصورة إلى مخيلته حين أراد التحدث عن زحف الجيش وما يصدره من أصوات فى حركته وقعقعة سلاحه، فقال:[2]

**كأن هزيزنا يوم التقينا .. هزيز أباءة فيها حريق**

---

(1) المصدر السابق، ص288.
(2) الأصمعيات، ص202.

أما شجرة النخيل فكانت من أشهر أشجار الجزيرة العربية عامة ومنطقة الخليج خاصة.. فضرب المثل بنخل عمان وهجر، وضرب بها الأمثال كقول العرب "كمستبضع التمر إلى هجر"، وقد يطلق على البحرين كلها اسم هجر[1].

فشجر النخيل تشكل الشجرة الأولى فى رياض الخليج وحدائقها، وتمثل أهمية خاصة فى حياة أهلها وصور شعرائها فمن تمرها صنعوا الشراب الطيب الذى ضاهى العسل، ومن خوصها صنعوا الخصف الذى يحفظ الثمر، وجعلوا نواه علفاً للدواب، وأطلقوا عليه السوادى والرضيح، وعرض له المثقب العبدى حين صور سنام ناقته المختزن والقوى فقال:

**كَسَاهَا نا مِكا قرداً عليها .. سَوَادى الرضيح من اللَّجينِ**[2]

وعبر إعرابى نهدى من أبناء عمان عن أهمية تلك الشجرة وفائدتها فقال: "حملها غذاء، وسعفها ضياء، وجذعها بناء، وكربها صلاء، وليفاء رشاء، وخوصها وعاء وقروها إناء"[3].

وشجرة النخيل كانت مصدراً ثرياً لشعراء الجاهلية فى صورهم الشعرية المتعددة فى جذعها وعناقيدها، وكذلك كانت لشعراء منطقة الخليج كقول المفضل النكرى فى وصف لمة أحد الفرسان، أو وصفه لفرس ابن قران ولولاها لما نجا:

---

(1) فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد البكرى، ص413.
(2) المفضليات، ص290.
(3) الآمالى، ج3، ص16.

قَتَلْنَا الحارثَ الوَضَّاحَ مِنهم ∴ فَخَّر كَأنَّ لِمَّتَهُ العُذُوقُ[1]

ثم قال فى فرس ابن قران واصفاً عنقها:

تَشُقُّ الأرضَ شائلةَ الذُّنَابَى ∴ وهادِيها كأَنْ جِذْع سَحُوقُ

وشجرة النخيل لم تكن منفردة فى منطقة الخليج، فقد زيتها أشجار مثمرة غير قليلة من الموز والتين والرمان، التى تميزت بها عمان، وزاحمها أشجار كثيرة فى عمان والبحرين كالسدر والضال والتبغ والغرب والرمث والدوم والعضاه والعفار والمرخ.

فمنطقة الخليج تميزت ببيئة طبيعية غنية بالحدائق والرياض وبأشجارها المتنوعة وخيراتها الكثيرة، وما أفاء الله عليها من وفرة المياه، مما استدعى حفر الآبار وشق القنوات للزراعة وروى الإنسان والحيوان، كماء الستار وكاظمة ونطاع.

ومهما يكن احتفاء شعراء الخليج بالحديث عن البيئة الطبيعية لديهم فإنه يتضاءل أمام تنوعها وغناها وكثرتها وأمام ما وقعنا عليه فى بعض أشعار الجاهليين.

والمفضل النكرى واحد من شعراء الخليج الذى ضرب النبع مثلاً للقوة والشدة، بينما جعل السدر علامة للضعف والوهن وكنى به عن أعدائه بالقياس إلى قومه فقال:

وجدنا السدر خوارا ضعيفا ∴ وكان النبع منبته وثيق

فالبيت يتضمن تصريحاً واضحاً على خبرته بهذا النوع من الشجر

---

[1] الأصمعيات، ص202.

المعروف فى منطقة الخليج، ولكن حديث الممزق العبدى أكثر دقة لربطه شجر الرمث والغضا بكلمة بلادنا، فى تصويره لجيش النعمان بن المنذر فى قوله:[1]

فلمَّا أَتَى مِنْ دُونِها الرِّمْثُ والغَضَا

ولاَحَتْ لنا نارُ الفَرِيقَيْنِ تَبْرُقُ

فوَجَّهَها غَرْبيةً عن بلادِنـــا

وَودَّ الذين حَوْلَنا لو تُشَـرِّقُ

أما أشجار الضال والسمر فقد ذكرها الشعراء غالباً فى إطار تصوير أعناق الغزلان وتشبيه أعناق صواحباتهم بها، ويرسمون صورة الغزال أو الظبية وهى تحاول مد عنقها، لتلتقط أنضر الورق وأصفاه، فتتكشف محاسن العنق وطوله كقول المثقب العبدي:[2]

كَغِزْلاَنٍ خَذَلْنَ بـذَاتِ ضـالٍ ∴ تَنُوشُ الدَّانياتِ من الغُصُون

ولو أعاد المرء النظر فى الصورة السابقة لوجدها تأخذ عناصرها من البيئة الطبيعية الصامتة والمتحركة.

أما شجر العفار والمرخ فمن الأشجار التى عرفتها منطقة الخليج وما ولاها، وذكرها الأعشى فى شعره[3]، صراحة واستعملت فى الكتابة، ورأينا أحد شعراء الخليج يعرض لمسألة الكتابة، وما ظهر من آثارها على صفحة، وشبه آثار الديار بها دون أن يصرح بذكر العفار

---

(1) المفضليات، ص433.
(2) المصدر السابق، ص288.
(3) ديوان الأعشى، ص89.

والمرخ[1].

أما مواضع ذكر النباتات والأزهار وإن جاء غالباً فى المقدمات الطللية غير أن بقية موضوعات القصيدة تلونت بأشكال الصور التى اختزنت ملامح النباتية فى أساليب متباينة كتباين الهدف لدى الشعراء.

وقد ورد ذكر النباتات والأزهار مقترناً بذكر الأشجار والمواضع ومشهد الحيوان ووصف الأطلال الدارسة بعد فراق أهلها وتوالى العهود عليها زمناً ومطراً كقول ثعلبة بن عمرو:[2]

**لمن دمن كأنهن صحائف ∴ قفار خلا منها الكثيب فواحف**
**فما أحدثت فيها العهود كأنما ∴ تلعب بالسمان فيها الزخارف**

فالأطلال أتى عليها عهود ممطرة تتزين بألوان بهية من الزهر، ففعلت فيها ما يفعله صاحب الأصباغ فى الثياب والبيوت حين يوشيها.

وبهذا المنطق الشعرى كان يعبر عن البيئة الطبيعية وعن طبيعة الحياة التى يعيشها الجاهليون.. فالصياغة أصبحت مصدراً يتكئ عليه الشعراء فى بيان جمال الصورة الشعرية وأثرها، والصياغة مما شهدته الحواضر أكثر مما شهدته البادية.

وفى صميم هذا التشكيل الفنى التصويرى نقع على البعد الزمانى ممثلاً بالعهود صيفاً وشتاءً، وكرهما مرة بعد مرة وعلى البعد المكانى ممثلاً بالأطلال (الكثيب، واحف)، فيرتبط البعدان مثلما يتحد الزمن فى مصطلح العهود، وهذا كله أدى إلى التشكيل الجمالى الموحى والمعبر بأقل

---

(1) المفضليات، ص281.
(1) المفضليات، ص281.

الألفاظ وهذا ما نجده فى قول يزيد بن الحذاق الشنى حيث وصف فرسه فقال:[1]

**وداويتها حتى شتت حبشـــــية ∴ كأن عليها سندساً وسدوساً**

**فاضت كتيس الربل تنزو إذا نزت ∴ على رَبذَاتٍ يفتلين خُنُوسا**

فالشاعر يرسم لوحة جميلة للأرض التى غذاها مطر الشتاء فوشيت بالنبات والأزهار مما يخلب الألباب ويهدش البصر، فجاءت أشبه بثوب الديباج أو الطيلسان الأخضر.

وهكذا تألق فرسه منظرا وقوة بعد أن تعهدها بالرعاية والتدريب، ولكى يبرز خفتها ونشاطها نقلنا إلى صورة تيس الربل من نبات الصحراء فى آخر الصيف، فتراه يتطاير دون أن يستطيع قابض السيطرة عليه.

فالشاهد دل على براعة وذكاء فى شدة الإيجاز للبعد الزماني، وفى الجمع بين الطبيعة الحية والصامتة، وفى وصفه البديع لنباتات الشتاء ونباتات الصيف.

هكذا رأينا زينة الأرض مصدر إلهام الشعراء فى صورة حتى لدى شعراء الجاهلية وشعراء الخليج[2]، وكانوا يمزجون فى عرضها بين البيئة البدوية والحضرية والحية والصامتة فى إطار مجازى سواء أكان موضوعهم غزلاً أم فخراً ومدحاً أو غير ذلك.

ومهما يكن حجم الحديقة النباتية وأنواع الأزهار التى ذكرها

---

(1) المصدر السابق، ص297.

(2) الأصمعيات، ص165.

شعراء الخليج فإنها فقيرة بالقياس إلى حديقة الأزهار عند الشعراء الجاهليين، وبخاصة الأعشى الذى تنقل فى البلاد فخبر الحدائق واختار منها أحسن الصور الشعرية للأقحوان والريحان والكافور والزنبق والعشرق والعرار والثغام، وغيرها من النباتات والأشجار، واستحق أن يكون شاعر الرياض، ساعده على هذا ما تميزت به قريته منفوحة من خضرة.

ولم تكن البيئة الطبيعية الصامتة بأشكالها المتعددة لتحوز اهتمام الشعراء وإنما كانت الطبيعة المتحركة (الحية) مثار ابداعهم واهتمامهم، ومصدراً كبيراً لحياتهم إن لم تكن هى الأصل فى ذلك كله.

**ب. البيئة المتحركة الحية:**

دخلت صورة البيئة المتحركة الحية فى نسيج الحياة والفن لأهل الجاهلية جميعاً، فشكلت أثراً واقعياً وفنياً، وحظيت الإبل والنعام والخيل بأكثرها.

ففى الفن امتزج الواقع الفنى بالواقع النفسى والفكرى للشاعر الذى عاش فى البيئة عاشقاً لها مفضلاً إياها على غيرها ولهذا جعلها مادة للتحريض الانفعالى تارة ومصدراً لتوليد أفكاره وصوره تارة أخرى، فتراه يقلب صفحات البيئة المتحركة مؤطراً إياها فى سياق لغوى ومعنوى وعاطفى يبعث تأثيراً متصاعداً وعودة إلى الأصل الذى انطلق منه كلما قرأه قارئ أو تلقاه متلق فى أى عصر كان. فالشاعر الجاهلى نقل الواقع

الطبيعى بصياغة تركيبية جديدة تعبر عن الأصل وليست هى الأصل دون أن يقصد إلى تصوير البيئة الطبيعية قصداً، لأنه ما رمى إليه من مشاعر وأفكار كان أبعد من صورة الواقع القريب، فالبيئة الطبيعية أداة ووسيلة لغايات أكبر، ومشاعر أرحب.

ولهذا اختلف التأثر والتأثير زماناً ومكاناً وثقافة وعاطفة، على الرغم من أن المصدر واحد وهو الطبيعة الحية، فالناقة هى الناقة أينما كانت وفى أى زمن ولدت، وهذا لا يمنع تشابه الصور فى الشعر الجاهلى أو طرائقها فى بيئة دون بيئة، والدارس المتمهل لصور الطبيعة المتحركة الحية فى شعر منطقة الخليج يدرك الأثر النفسى والفكر المتباين نوعاً ما عما عرفناه لها فى الشعر الجاهلى وإن تشابهت فى بعض طرائف العرض، وبناء القصيدة.

فهذه الصور تأثرت بطريقة الحياة المدنية التى عرفتها المنطقة، وباختلاف أنماط البيئة الصامتة على نحو من الأنحاء عن بقية مواضع الجزيرة العربية.

وليس من الإنصاف أن نعمم فى الأحكام، فالشاعر الخليجى فى العصر الجاهلى لم يكن منعزلاً عن دائرته الثقافية، والاجتماعية والجغرافية عن الشاعر الجاهلى عامة، مما جعله يقتنص كثيراً من صور الطبيعة المتحركة فى إطار مجازى كغيره من الشعراء على كثرة مزجه بين البادية والحاضرة، فضلاً عن الإشارة إلى أن القبائل التى استوطنت مناطق الخليج العربى وإن شهدت نوعاً من المدنية الزراعية

والصناعية والتجارية لم تستطع أن تفك إصارها من تقاليد الحياة البدوية.

واستطاع شعراء هذه القبائل ومن جاورهم أن ينقلوا بأمانة ودقة وبراعة تفاعلهم الخلاق مع بيئتهم القديمة والجديدة، ونجحوا فى تحميل ناقتهم هم القوم فى طلب النجعة، وهو هم مرعب وقلق قاتل يستمر لدهر طويل، ويلاحق البشر وممتلكاتهم، ولكن الرعب الأعظم والشر المستطير لم يعد يتمثل لهم فى تصدع الشمل وفراق المنازل ونضوب العشب والماء، وإنما غدا له وجه آخر، إنه رسف الظلم الذى يطوق بلادهم وأعناقهم، ظلم ملوك الحيرة الذين تسلطوا على بيئتهم الطبيعية وحياتهم أينما حلوا فى ديار الخليج، والمناذرة كانوا ولاة لملوك الفرس[1].

هكذا استطال الهم وتطور فى مفهوم الشعراء، واستطاعوا أن يرسموا ذلك بشكل موح وممتع ومثير فى تقاليد القصيدة الجاهلية المعروفة، فأبدعوا الواقع الفنى من صميم الواقع الطبيعي، كقول المثقب العبدي[2].

**أَجِدَّكِ ما يُدْرِيكِ أنْ رُبَّ بَلْدَةٍ ... إذا الشمس فى الأيام طالَ ركوُدُها**

**وصاحَتْ صواديحُ النهارِ وأعْرضَتْ ... لوامُع يُطْوَى رَيْطها وبُرُوُدها**

**قطعتُ بفتلاء اليدين ذريعَةٍ ... يَغُولُ البلادِ سَوْمُهَا وَبريدُها**

---

(1) طبقات فحول الشعراء، ج1، ص28 - 30.
انظر رسالتى فى الماجستير وعنوانها "شعر شعراء الحيرة فى العصر الجاهلى، دراسة وجمع ما لم يجمع ".

(2) المفضليات، ص150.

على طُرقٍ عِنْدَ الأراكةِ ربّـةٍ تؤازى شريمَ البَحْرِ وهو قعيدُهَا

فى هذه الأبيات نشعر بمعاناة المثقب من غيب الشمس التى ثبتت فى السماء، وكأنها أبت أن تبرح مكانها، لا يسمع فى جنبات الأرض الجنادب ولا يتلألأ لعينيه إلا ظل السراب الذى خالفه ثياباً تطوى فى هذا الصيف اللاهب الذى يعانى منه البشر والحجر توجه راحلاً إلى النعمان بن المنذر، على ناقة قوية صابرة لا تعبأ بالحر وعناء الطريق، هدفها أن تصل إلى الملك كى يطلق أسرى عبد القيس شيباً وشباناً.

فالمثقب كان يرسم ملامح الخليج فى موازاة البر مع البحر فى خط سيره إلى الحيرة فيمر بمواضع كثيرة كالأراكة وليصبح سفير قومه لدى النعمان، وكذلك فعل ابن بجدته الممزق العبدى حين توجه إلى عمرو بن هند. فكل منهما يستعطف ممدوحه فى أسلوب طريف بديع، وكل من الملكين يرق للشاعر فيعفو عن قومه، وكل منهما يمرح بطلبه، كما يقول المثقب:[1]

فأنْعِمْ أبَيْت اللَّعْنَ، إنَّكَ أَصْبَحتَ لَدَيكَ لُكَـيزٌ كَهْلُها ووليدُها

ونلاحظ مرة أخرى التتبع الدقيق لحركة الرحلة، وهو تتبع معروف لدى الجاهليين وخاصة عند النابغة الذبياني، الذى أجاد فى مدحه واعتذارياته على أن غاية شعراء الخليج مغايرة نوعاً ما... دون أن نعدم بعض الصور الأخرى التى تشابهت فى أساليب الشعراء

(1) المفضليات، المصدر السابق، ص153.

الجاهليين[1].

ويلوح لنا مما تقدم أن منطقة الخليج كانت دريئة لسهام المناذرة وغيرهم، واتهمت عبد القيس خاصة بالذل والخنوع لهم، كما ورد على لسان المتلمس الضبعى البكري[2].

**إنَّ الهوانَ حمارُ القوم يعرفـه والحر ينكره والرَّسْلة الأُجُدُ**
**كونوا كبكر قد كان أولكـم ولا تكونوا كعبد القيس إذ قعدوا**
**يعطون ما سئلوا والخط منزلهم كما أكب على ذى بطنه الفَهِدُ**

ولا شك أن المتلمس ظلم عبد القيس على نحو ما، وخاصة أن هذه القبيلة توزعت من عمان حتى وصلت الأهواز فى جنوب العراق وشمال شرق الخليج العربي، فاللبوء بن عبد القيس كانت هناك وبنو شن من عبد القيس انتصروا على قبيلة إياد وأجلوها إلى سواد العراق، ولما انتصروا فى بعض المعارك خسروا فى الأخرى وهادنوا أمام الأقوى... كبكر تماماً. فعبد القيس تدرك أن حصونها خيلها ولهذا تعدها دائما للرهان والقتال، ولا أدل على هذا من شهرة " هراوة الأعراب " فقد دخلت الحلية خمس عشرة سنة فجعل الريان بن حويص العبدى سبقها لعبد القيس، كل سنة لبطن.. فقال عبيد بن مرثد راثياً إياه وذاكرا الفرس[3]:

**سقى جدث الريان كل عشية من المزن رجاف العشى دلوج**
**أقوام لفتيان العشيرة قسوة لهم منكح من جريها وصبوح**

---

(1) ديوان النابغة، ص36، 94.
(2) شعراء النصرانية للويس شيخو، جـ3/343: 344.
(3) الشعر والشعراء، ج1، ص199.

**فأمن رأيى مثل الهراوة منكحا إذا بل أعطاف الجياد جـروح**

فعبـد القـيس اعتـزت بالخيـل وأكـرمتهـا وحافظـت علـى شـجرة أنسابها وهجنوا السلالات العربية إذ ظن بعض منهم أن الخيل الهجنة قد تضاهى أو تحازى الخيل العراب"[1]

وبهذا كله خالطت الخيل حياتهم، وظهرت فى الفن الشعرى مساوية لذلك، ومثل هذا عرفناه عند القبائل العربية كلها، فكانت إحدى وجوه البيئة الطبيعية الحية فى صور الشعراء الجاهليين، ومن هذا قول ثعلبة بن عمرو العبدي:[2]

**أأسماء لم تسألى عن أبيـك والقوم قد كان فيهم خطـوبْ**
**إنَّ عُرياً . وإن ساءنـي أحـبُّ حَبيبٍ وأدنى قريـبْ**
**سأجعل نفسى له جُنّـةً بشاكى السلاح نهيك أريبْ**
**واهلك مهر أبيك الـدوا ء ليس له من طعام نصيبْ**
**خلا أنهم كلمـا أوردوا يضيـح قعبا عليه ذنـوب**

فالشاعر يؤثر خيله على نفسه فى الطعام والشراب، ويقوم لها درينة يحميها فى الشدائد، وكذلك كان المستوغر بن ربيعة بن كعب أحد بنى سعد بن زيد مناة، وهو من المعمرين الذين سكنوا قطر، وكان ممن اقتنى الخيل وحبسها للغارة والصيد، وقد آلمه أن يرى فرساً له تغرق فى ماء غمر غزير فقال:[3]

---

(1) الأقوال الكافية والفصول الشافية للرسولى، ص332.
(2) المفضليات، ص253.
(3) المعمرون والوصايا، ص13.

**ينش الماء فى الربلات منها ∴ نشيش الرضف فى اللبن الوغير**

فصوت الماء حين اندفع فى جنبات فرسه وأعضائها أصدر صوتاً يشبه صوت الماء البارد الذى أضيف إلى اللبن المغلي.

**تلك هى أمثلة للبيئة الطبيعية المتحركة من الإبل والخيل.**

وقد وردت فى صور أخرى مجازية شتى، وكذلك تفعل فى الأنواع الأخرى من صور الحيوان فى منطقة الخليج العربي، فالغاية لدينا إبراز هذه الصور دلالة على تنوعها وأهميتها، وعدم خلو المنطقة منها سواء كانت فى الحاضرة أم البادية، فشعراء الخليج يمزجون بين حيوانات البادية والحاضرة فى صور شعرية مثيرة وممتعة. وفى سياق أغراض القصيدة كلها أحيانا أو فى بعضها.. فجمعوا بين الديك من حيوانات الحاضرة، والناقة إحدى حيوانات البادية أو بينها وبين الهر، وكلاهما يفزعها لعدم ألفتهما، فتمضى لطياتها مسرعة، كقول الممزق العبدي:[1]

**وناجيةٍ عَدَّيتُ من عِندِ ماجدٍ ∴ إلى واحدٍ من غير سخْطٍ مُفَرَّقِ**
**ترى أو تراءى عند معقد غرزها ∴ تهاويل من أجلاد هِرَّ معلقِ**

وبقيت للبيئة المتحركة البدوية سلطانها فى أذهان الشعراء وصورهم، بل لن تزايل مخيلتهم قط[2]، ونشير إلى صورة أخيرة تتحدث عن الإبل المسرعة المشبهة بالقط المتجه إلى الماء كسرعة الرماح لشدة عطشه، كقول المثقب العبدي:[3]

---

(1) الأصمعيات، ص164، 165.
(2) أمال المرتضى، ج1، ص135.
(3) المفضليات، ص151.

**تهالَكُ مِنها فى الرِّخاءِ تهالكاً ∴ تهالُكُ إحدى الجُونِ حانَ ورُوُدُها**

إن الارتكاس إلى البيئة المتحركة البدوية عند أبناء الخليج يدل على عظمة تأمل ظاهرة التبدى فى نفوسهم حياة وفنا، وإن كانت بيئتهم لم تغير ملامحها المدنية كثيراً ... على ارتباطها العظيم بالبحر وامتداده على الساحل الغربى والشمالى للخليج العربى.

**البيئة البحرية:**

كشفت لنا دراسة البيئة البرية الصامتة والمتحركة أن الأثر الفنى ابن بار فى صورته وجوهره للأثر الطبيعي، وأن كل شاعر استمد منه لوحاته المؤثرة والموحية فى إطار أغراضه ومعانيه الكبرى التى اشتمل عليها شعره ولم تكن طريقة التناول للبيئة البحرية لتختلف عن النهج السابق، وإن كان حظها أقل بكثير من سابقتها، علماً أن منطقة الخليج العربى تميزت بالفرض البحرية ومغاصات اللؤلؤ، وصناعة المراكب، فضلاً عن حيواناتها.

وعلى أهمية ذلك لم يبتدع شعراء الخليج صوراً شعرية تفوق ما قاله الشعراء فيها، ولم يكثروا فى الوقوف عندها كما فعل غيرهم، إذا استثنينا مما قاله المثقب العبدي، ففى نونيته المشهورة نحظى بحديث طريف عن صناعة السفن ودهانتها وحركتها اللينة السريعة فى الماء مشبها الظعائن بها:[1]

**وهن كذاك حينَ قطعن فَلجًا ∴ كأن حُمُولَهُن على سفين**

**يشبهن السفين وهن بُخْتٌ ∴ عُراضات الأباهر والشؤون**

---

(1) المفضليات، ص288: 291.

---------- ∴ ----------

**كأن الكور والأناع منها ∴ على قرواء ماهرة دهين**

**يشق الماء جُؤْجُؤُها ويعلو ∴ غوارب كل ذى حدب بَطينِ**

فالمثقب لم يكن أول من رسم ملامح البيئة البحرية فى الشعر الجاهلي، وربط بينها وبين البيئة البرية والبدوية فقد ذكرها امرؤ القيس، وطرفه، والمرقش الأكبر وغيرهم ممن تحدث عن الخليج أو عن تشبيه الإبل بالسفن، ولكن المثقب صور لنا البيئة البحرية تصوير الخبير المشاهد لصناعة السفن وطلائها حتى لا يتأثر الخشب بالماء، ولا يشبهه فى هذا المقام إلا بشر بن أبى خازم، وزاد عليه حديثه عن البضائع التى تحملها تلك السفن، من الهند.

وينفرد المسيب بن علس الضبعى فى تصوير البحارة وركوب البحر والغوص على اللؤلؤ، فقد وصف حكاية أربعة بحارة غامروا بحياتهم فى سبيل واحدة من اللآلئ، ورسم لنا فيها لوحة بارعة ومثيرة لحياتهم ومشاعرهم، وتتبع لوحته بإطار قصصى جذاب ودقيق، فأنبأنا بما ينتاب كل واحد من نجاح وإخفاق على مدار ثلاثة عشر بيتاً، وهو ما لم نعثر عليه فى الشعر الجاهلى كله، وكان منطلقه لهذه الحكاية وصف صاحبته بالجمانة التى جاء بها رئيس أولئك الغواصين، فقال:[1]

**كجمانة البَحرى جاء بها ∴ غواصها من لجة البحر**

**صلب الفؤاد رئيس أربعة ∴ متخالفى الألوان والنحر**

**فتنازعوا حتى إذا اجتمعوا ∴ ألفوا إليه مقالد المر**

---

[1] خزانة الأدب، ج1، ص544. وانظر أيضاً شعراء النصرانية للويس شيخو، جـ356/3.

وعلت بهم سجحاء خادمة ∴ تهوى بهم فى لجة البحر
حتى إذا ما ساء ظنهم ∴ ومضى بهم شهر إلى شهر
ألقى مراسيه بتهلكة ∴ ثبتت مراسيها فما تجري
فانصب أسقف رأسه لبد ∴ نزغت ربا عيتاه للصبر
أشفى يمج الزيت ملتمس ∴ ظمآن ملتهب من الفقر
قتلت أباه، فقال: أتبعه ∴ أو استفيد رغيبة الدهر
نصف النهار، الماء غامره ∴ وشريكه بالغيب ما يدري
فأصاب منيته فجاء بها ∴ صدفية كمضيئة الجمر
يعطى بها ثمنا فيمنعها ∴ ويقول صاحبه: ألا تشري؟
وترى الصوارى يسجدون لها ∴ ويضمها بيديه للنحر
فتلك شبه المالكية ∴ طلعت ببهجتها من الخدر

بهذه الطريقة التمثيلية المعبرة والجذابة شوقنا وشغفنا بجمال صاحبته المالكية، فهى تستحق منه أن يكابد عشقها والسعى الدؤوب أثرها والتمسك بها دون غيرها.. مثله فى ذلك مثل رئيس البحارة الذى أصر على اصطياد تلك الجمانة... وهى التى قتلت أباه من قبل.

والمتأمل للنص السابق لا يخالجه الشك فى قصد المسيب من عرض قصة البحارة والغوص على اللؤلؤ ومدى ما يلاقونه من جهد وعذاب طيلة أشهر عدة.. فحين قص علينا حكاية ركوب البحر الشاقة من أجل الرزق كان يريد إبراز قيمة ما يختزنه اللؤلؤ من ملامح اجتماعية ونفسية وجمالية واقتصادية وكلها وجه واحد لحكايته مع صاحبته، ولم يستطع ابن أخته الأعشى أن يقرعه وإن عرض لدارين التى

كانت موطن ذلك الغواص ولكنهما استطاعا رسم صورة البيئة البحرية، وكل منهما أمتع وأرخ لنا بشعره الفنى ما كان يدور ويجرى فيها من أحداث مختلفة... أما حديث عبيد بن الأبرص فقد ساقه عن البيئة البحرية سياقاً آخر يلبى رغبته وهدفه فى الافتخار بشعره وقدرته على اصطياد شوارده، فكان بهذا فرداً هو الآخر من دون الشعراء الجاهليين[1]، وظل كالمسيب نسيج وحده فى تفصيل صورة البحر، إذ تتبع بحس الفنان الأصيل حركة السمك وقدرته على المناورة فى لج البحر... فحياته فى الماء وموته بخروجه منه، وحياة عبيد تكمن فى الشعر، وهكذا نرى لسانه يمخر عباب بحره، ومن ثم ينتهى إلى تصوير طريف لدرعه الملساء الصافية، القوية النسج، الخالية من الشوائب فيجعل صورة الحوت لها شبهاً، فيقول:[2]

**سل الشعراء هل سبحوا كسبحى ∴ بحور الشعر أو غاصوا مغاصي**

**لسانى بالنَّشير وبالقوافى ∴ وبالأسجاع أمهر فى الغياص**

**من الحوت الذى فى لج بحر ∴ يجيد السبح فى لجج المغاص**

**إذا ما باص لاح بصفحتيه ∴ وبيص فى المكر وفى المحاص**

**---------- ∴ ----------**

**بنات الماء ليس لها حياة ∴ إذا أخرجتهن من المداص**

**إذا قبضت عليه الكف حينا ∴ تناعص تحتها أى انتعاص**

**وباص ولاص من ملصى ملاص ∴ وحوت البحر أسود ذو ملاص**

---

(1) راجع ديوان عبيد بن الأبرص، ص75. تحقيق وشرح الدكتور حسين نصار، الطبعة الأولى، 1377هـ.

(2) المصدر السابق، ص76 - 78.

**كلون الماء أسود ذو قشور ∴ نسجن تلاحُمَ السرد الدلاص**

والشواهد السابقة تثبت أن عبيدا عرف البحر وشاهد ما اختزنه من حياة، سواء فى رحلاته إلى الحيرة أو فى غيرها علماً أن منازل بنى أسد كانت أقرب إلى مناطق الخليج من غيرها، وكذلك كانت منازل ضبيعة إحدى بطون بكر:[1]

وهذا لا يعنى أن صورة البيئة البحرية لم ترد فى الشعر الجاهلي، وقد ظل إبداع امرئ القيس متميزاً فى حديثه عن ظلمة البحر، ويقرب منه ما قاله عمرو بن براقة، والطماح التغلبى الذى رسم لوحة فنية ممتعة لعظمة البحر وتلاطم أمواجه وظلمته، وقد جرت فوقه السفن، وجاء هذا فى معرض الحديث عن جيش بنى تغلب مهدداً ومنذراً لبنى شيبان من سطوته فقال:

**جند عريض كمثل البحر بسطته ∴ أو كالظلام، فهل للسلم أن يدنو؟**
**فاستسلموا يا بنى شيبان ويحـ ∴ كم فالبحر تجرى عليه الريح والسفن**

هكذا أتحدت القدرة لدى البحر والجيش فى صورة الطمّاح فى إيجاز تصويرى يدل على دراية كبيرة بصفات البحر.

وبهذا تتحد النوازع بالملامح المكانية الموحية بالهدف والغاية عند كل شاعر تبعاً للغرض الشعرى والمعنى ... فكل شاعر يتصيد من البيئة البحرية ما يلوح بخاطره، ويفصح عن أفكاره، ويعبر عن مشاعره، مما يجعل شعره سجلاً صادقاً لما يوحى به.

---

(1) الشعر والشعراء، ج1، ص267 - 269.

وحين كان الشاعر يعبر عما اختزنه لم يكن يدور فى خلده أن شعره سيغدو وثيقة من أهم الوثائق الأدبية والاجتماعية والتاريخية والجغرافية. فالواقع النفسى والفكري، والتاريخى والمكانى مرسوم بكلمات فنية جمالية خالدة خلود الزمن.

## خصائص شعر الأطلال فى القصيدة الجاهلية

وعندما نمعن النظر فى افتتاحيات القصائد الجاهلية التى بدأها أصحابها بهذا الغرض التقليدى - الوقوف على الأطلال - فإننا نجد أنها أقوى أبيات هذه القصائد دلالة على نفسيات أصحابها، وأصدقها تصويراً لمشاعرهم نحو بيئتهم وظروف حياتهم، وأدقها وصفاً لطبيعة باديتهم وما تشتمل عليه هذه البادية من أماكن، وما تخرجه أرضها من نباتات وأشجار، وما يعيش فيها من حيوانات مختلفة وما يعتمد عليه سكانها فى حياتهم، وما لهم من عادات وتقاليد، وسلوكيات مختلفة.

. 1 .

فمن حيث دلالة الافتتاحيات الطللية على نفسيات أصحابها الشعراء نجد أنها قد أوحت إيحاءً قوياً بما كانت تنطوى عليه نفوس هؤلاء الشعراء من عاطفة صادقة نحو محبوباتهم تتمثل فى وفائهم للحب وحنينهم الدائم إلى أيامه، وإخلاصهم الشديد لذكرياته، إخلاصاً لا يزيده مر السنين وتعاقب الأعوام إلا رسوخاً واستمراراً لدرجة أن الشاعر يخيل إليه عندما يقف على الطلل بعد مدة ليست بالقصيرة، أن حبيبته لا زالت فى مكان لهوها ومرتع صباها كعهده بها من قبل على الرغم من رؤيته لآثار البلى

والخراب المسيطرين على المكان، وما ذلك إلا لأن الشاعر الوفى استغرق فى استعراض ذكرياته استغراقاً نسى معه نفسه وذهل فيه عن لحظة واقعه. فها هو امرؤ القيس يمر بالأطلال بعد ثلاثين شهراً فيروعه ويفزعه ما حل بها من مظاهر البلى ولكنه يجد أن من حقها عليه أن يلقى عليها تحية الصباح المعهودة فى الجاهلية " عم صباحاً " - أو أن فرحته بالتعرف على المكان تنسيه ما هو عليه وأنه خرب ليس به أنيس يرد التحية بمثلها، ثم يراجع نفسه فى تأثر حزين قائلاً: وكيف ينعم مكان نزل به ما أرى، ومرت عليه حقبة طويلة وهو على تلك الحال؟ إن الناعم حقاً هو السعيد فى حياته الخالى من الهموم والأوجال[1] ليس ذلك الذى تعتريه ظروف البلى من رياح وأمطار ويتعرض لثلاثة أصناف من التغير فى مدة ثلاثين شهراً وتنزل عليه الأمطار الغزيرة التى من شأنها محو معالمه وإزالتها وكأنها لا تعلم أن هذا الذى تمحو معالمه وتزيل آثاره إنما هو مسرح أمراح " سلمى" الحبيبة، وموطنها الذى كانت تعطره بأنفاسها وتشيع فى أرجائه السعادة والبهجة.. ولكنه مع هذا يغيب عن وعيه فى حلم خيالى يبحث فيه عن سلمى فى منعطفات الوادى وهى تداعب صغار البقر الوحشى وتتسلى بالبحث عن بيض النعام وأنها لا تزال على عهده بها فى ليالى اللقاء حيث كان ينعم بثغرها المستوى وجيدها الجميل الذى يشبه جيد الغزال، وبعد أن يصحو

---

(1) وهو هنا يشخص الطلل الذى هو مظهر من مظاهر الطبيعة ويعبر عنه من خلال مشاعره هو، وكأن الطلل إنسان عاقل يشعر بالحزن والألم لما نزل به وكأن بينه وبين الشاعر تجاوب روحى يجعله يعيش ظروفاً تشبه ظروف الشاعر الحزينة التى كان يعيشها عقب مقتل أبيه وكفاحه للأخذ بثأره فكان ما بداخله انتقل إلى الطلل الأصم. وإذن فإننا نستطيع أن نقول إن الرومانسيين لم يخترعوا هذا الاتجاه - تشخيص مظاهر الطبيعة - من عند أنفسهم ولكنهم استمدوه من شعرنا القديم ثم طوروه وزادوا عليه.

على الواقع يخاطب نفسه قائلا: أفق فإنك تحلم. أين أنت من سلمى وعهدها؟

**ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى ... وهل يعمن من كان فى العصر الخالي؟**
**وهل يعمن إلا سعيد مخلد ... قليل الهموم ما يبيت بأوجال؟**
**وهل يعمن من كان أحدث عهده ... ثلاثين شهراً فى ثلاثة أحوال؟**

**ديار لسلمى عافيات بذى الخال ... ألح عليها كل أسحم هطال**
**وتحسب سلمى لا تزال ترى طلا ... من الوحش أو بيضا بميثاء محلال!**

**وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا ... بوادى الخزامى أو على رس أوعال!**
**ليالى سلمى إذ تريك منصبا ... وجيدا كجيد الرئم ليس بمعطال[1]**

والإخلاص فى الحب والوفاء لذكريات أيامه الجميلة لا ينسيان العاشق الوفى نفسه فحسب خلال وقوفه على أطلال محبوبته ولكنهما يوهنان من عزيمته ويذهبان بجلده وقوة تحمله فيبكى بكاء المحزون، الكليم الواد، أو الثكلى جددت أحزانها الأيام، وأن رفقاءه الذين استعان بهم واستبكاهم لينصرفون عن مواصلة المجاملة إلى موقف آخر يرونه أجدى عليه وأبقى لحياته، وهو موقف النصيحة بألا يغرق فى أحزانه مخافة جلبه الهلاك على نفسه. فالأجدى له أن ينسى الماضى ويقبل على الاهتمام بما ينفعه غدا. ولكن ويل للشجى من الخلى. أن ما

---

(1) واضح أنه فى قوله تحسب يجرد من نفسه شخصاً يخاطبه والطلا ولد البقرة الوحشية، الميثاء ميل الوادى أو الطريق إلى الماء، المحلال: الذى يحله الناس كثيراً، المنصب: الثغر المستوى، الجيد: العنق: انظر: امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية، د. الطاهر مكي، ص236.

بقلبه من لذع الحزن، على فراق أحبابه لا يخففه إلا ذرف الدموع. فلابد من إطالة الوقوف والاستمرار فى البكاء حتى يشتفى صدره وتهدأ ثورة أحزانه، وأن تتصل دموع أمسه غداة ارتحال الأحباب بدموع اليوم وهو يبكى على أطلالهم وأن تكون هذه الدموع غزيرة تسقط على صدره وتبل محمله، يقول امرؤ القيس أيضاً:

**وقوفا بها صحبى علىَّ مطيَّهم ... يقولون لا تهلك أسىً وتجمَّل**[1]

**فدع عنك شيئا قد مضى لسبيله ... ولكن على ما غالك اليوم أقبل**

**وقفت بها حتى إذا ما ترددت ... عماية محزون بتشوق موكل**

**وإن شفائى عبرة لو سفحتها ... وهل عند رسم دارس من معول**[2]

.....

**كأنى غداة الروع يوم تحملوا ... لدى سمرات الحى ناقف حنظل**

**ففاضت دموع العين منى صبابة ... على النحر حتى بل دمعى محملي**

وبعد أن يعطى الشاعر العاشق أطلال المحبوبة حقها بالبكاء عندها وينصرف عنها مستأنفاً رحلته فى فجاج الصحراء المترامية الأطراف، ويحط رحاله فى إحدى الفلوات بغية الراحة فإن سيطرة الذكرى التى أهاجب أشجانها رؤية الأطلال تجعل الأحلام تتوافد عليه وهو نائم وتجتذب خيال محبوبته ليؤنسه خلال نومه، وينصرف عنه سريعاً بمجرد أن يفيق حيث يتلفت حوله فلا يجد إلا رحله والصحراء الممتدة،

---

(1) جمهرة أشعار العرب: أبو زيد القرشي، ص15 وما بعدها، تحقيق البجاوي. دع: اترك، الغول الهول والمشقة وغاله، أذهبه وأهلكه أى دع ما مضى وأقبل على ما تدفع به عن نفسك المشقة اليوم أو أقبل على دفع كل مكروه تتعرض له اليوم.

(2) فى المعلقة شرح الزوزني: عبرة مهراقة فهل الخ.، سفح الدمع: صبه، الرسم الدارس: الأثر البالى، معول: شيء يعول عليه، الصبابة "رقة الشوق، المحمل: موضع حمالة السيف فالدموع سالت على عنقه وتسربت فبلت حمالة سيفه أو موضع حمالته.

وقد أحدث الخيال الطارق آلاماً وأشجاناً تجرح القلب وتشعل نيران الحزن، فليت الحلم كان حقيقة وليت زيارتها تحققت وعاين رسمها في الصباح يقظاناً، ولكن: هكذا العهد بخيالها دائماً يواصل زيارته له وهو نائم في كل مكان ينزل به ثم يولي ويترك له تباريح الشوق ودموعه المتحدرة يقول المرقش الأصغر[1] ربيعة ابن سفيان من بكر بن وائل:

**أمن رسمِ دارٍ دمع عينك يسفح ... غدا من مقامٍ أهلُهُ أو تروَّحُوا؟**

**تُزجي به خُنْسُ الظِّباءِ سخالَها ... جاذرها بالجّو وردٌ وأَصبحُ**

**أمِنْ بنت عَجلان الخيال المطوّحُ ... ألمَّ ورحلي ساقطٌ متزحزح**

**فلما انتبهنا بالفلاة وراعني ... اذا هو رحلي والفلاة توضح**

**ولكنه زُورٌ يوقِّظُ نائما ... ويُحَدِثُ أشجانا لقلبك تجرح**

**بكل مبيتٍ يعترينا ومنزلٍ ... فلو أنها إذ تدلج الليل تصبح**

**فولّت وقد بثت تباريح ما ترى ... ووجدى بها إذ تُحدِرُ الدَّمع أبرح**

**. 2 .**

كما دلت المقدمات الطللية على نفسيات الشعراء وأوحت بما تنطوي عليه هذه النفسيات من عاطفة صادقة نحو محبوباتهم جعلتهم يتمسكون بحبهن ويفون لذكرياتهم معهن، فإن هذه المقدمات صورت لنا

---

(1) جمهرة أشعار العرب للقرشي، ص437 وما بعدها، الاستفهام هنا تقريري أنه يقر ببكائه وسفح دموعه عند أطلال أحبابه الذين تركوها ذات مساء أو صباح. تزجي: تسوق والخنس القصير مقدم الأنف، السخال الصغار من أولاد الظباء والجأذر: أولاد البقر الوحشي ويريد أن ديار الأحباب صارت مرتعاً للظباء والجأذر ورد: في لون الورد، أصبح: أشد حمرة من الورد أو فيه بياض، يوقظ: يبقظ، الزور: الزائر، تدلج تسير ليلاً، أبرح: أشد، يريدان يقول: أن شوقي يشتد إليها بعد يقظتي وكلما ذرفت الدموع اشتد شوقي إليها.

تصويراً صادقاً جلياً مشاعر الشعراء الجاهليين نحو بيئتهم البدوية وظروف حياتهم بها، فبيئة الصحراء بالجزيرة العربية لم تكن بيئة مستقرة يشعر قاطنوها بالأمن والاستقرار والاطمئنان النفسى ولكنها كانت بيئة متنقلة لا يستقر ساكنوها بمكان إلا ريثما يستعدون لتركه والنقلة عنه، ولقد طبعت هذه الظروف المعيشية القلقة حياة الشعراء بطابع قاتم من الحيرة والقلق والتمزق النفسى وعكست هذا الإحساس على قصائدهم وطريقة ترتيبهم لأفكارها ككل، وعلى منهجهم الذى رسموه لأنفسهم فى افتتاحها بالوقوف على الأطلال بوجه خاص.

ولست مع الذين وصفوا عرب الجاهلية فى اتجاههم الذى اتجهوا إليه من حيث اشتمال قصائدهم على أغراض متعددة لا رابطة بينها بالسطحية فى نظرتهم إلى الأمور[1]، أو أن عدم معرفتهم بالفلسفة جعلتهم لا ينظرون إلى الأشياء نظرة عامة شاملة[2]. وقولهم أن العربى " كان يطوف فيما حوله فإذا رأى منظراً أعجبه تحرك له وجاش صدره بالبيت أو الأبيات من الشعر تذهب مذهب الأمثال والحكمة، ثم أنه كان إذا نظر إلى الشيء الواحد لا يستغرقه تفكيره بل يقف فيه على مواطن خاصة تثير عجبه فيترك الشجرة ككل أو كمجموع وينظر إلى استواء ساقها وجمال أغصانها فيصف هذا ويترك الأصل".

فليست السطحية وليس عدم العلم بالفلسفة ولكنه التمزق النفسى والشعور بالضياع وعدم الاستقرار "ولئن ارتبط الحنين فى عصرنا الحاضر

---

(1) الدكتور/ عبد الحميد المسلوت: الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام، ص298.

(2) مقدمة شرح المعلقات السبع للزوزني: منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، ص11

بوطن محدد ثابت تتعلق به مشاعر المواطن، فقد كان فى حياة الفرد العربى وطناً متجدداً متغيراً، كل واد يهبطه يتعلق به وله فيه ذكريات. كل منزل يألفه يلقط منه مشاعر مغايرة، كل رحلة يقطعها ترهف وجدانه بجديد من الأحاسيس والحياة والناس، فكان الشاعر يعانى تمزقاً نفسياً لا يشعر معه بالطمأنينة، ويجد تلذذاً وعزاء وسلوى فى تذكر أحداث الماضي. كانت حياته كلها رحلة وعبرها كان يغير طريقه أكثر من مرة، وأحياناً دون أن يعرف إلى أين وفيم؟ "[1].

ومن هنا كان " البكاء على الأطلال ثمرة البيئة المتنقلة... لقد رأى الشاعر الأطلال، فأول ما يسترد عنها من ذاكرته أجمل ما كان فيها وفى حياة صحراوية قاسية ومجتمع بدوى جاف تصبح المرأة أرق وأجمل ما فيه، ومشاهد التحمل آخر ما رأى من مناظر أحبته فهو يتتبعهم أيان ساروا وإلى أين اتجهوا، ويعقب وصف هذه المشاهد تحديد الأطلال ولكنها لا تأتى فى كل المقدمات.

يصدر الشاعر الجاهلى فى بكائه للأطلال وتصويره لأحزان الوداع عن عاطفة ذات جانب إنسانى عام يشارك فيه الناس جميعاً فى كل عصر وبيئة لأنه يتصل بأعمق مشاعر الفرد وأصدقها من الحب والصداقة والوفاء، ويرتبط بماضيه وحاضره وأمسه ويومه بإخفاقه ونجاحه، والعاطفة فيه جانب جوهرى أصيل وليست زينة تأتى مكملة وتابعة.. وهى - بكاء الأطلال - قبل ذلك وفوقه تعكس ارتباط الإنسان

---

(1) امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية للدكتور الطاهر أحمد مكي: ص260، طبعة دار المعارف بمصر.

بأهم شيئين: الأرض والحياة، وهذا الارتباط لا يتجه إليه الشاعر مباشرة وإنما يعبر عنه إيحاء مختفياً وراء ستار رقيق أو صفيق من أسماء الأمكنة والمواضع والأشخاص رموز تضيع مع اندماجنا فى تجربة الشاعر فيبقى لنا فيها ما وراءها وما ترمز إليه وتسقط معها الملامح الجغرافية المحددة، وتظل للتجربة أصالتها وشمولها، يقرؤها الناس فيسعدون ويعجبون فى كل مكان وعلى كل لسان "[1].

وعندما نقلب صفحات الشعر الجاهلى فإننا نجد الشواهد واضحة جلية على ما ذهبنا إليه. فنلمح فيها التصوير الصادق لمشاعر الشعراء نحو بيئتهم القلقة المضطربة وما كانوا يعانونه هم من قلق وتمزق نفسي. " فامرؤ القيس يمر بأطلال حبيباته: هند والرباب وفرتنا ولميس فيتساءل: لمن هي؟ ثم يعطينا تحديداً جغرافياً دقيقاً يتمثل فى عدد من أسماء الأماكن التى عاش بها يوماً فهي: سحم وعمايتين وذى أقدام وصفا الأطيط وصاحتين وغاضر. أماكن فارقها أهلوها فأصبحت منزلاً للنعاج والأرام. أنها ديار هند والرباب وفرتنى ولميس. كنا هنا قبل أن تباعد بيننا نوازل الأيام. اعطفا معى يا رفيقى على أطلال أمس الذاهبة نبكيها كما بكى ابن خذام قبلى أطلاله. أنها ذكريات تعيش فى أعماقى حية متحركة وأكاد ألمح قوافلهن ترتفع عليها الهوادج مختلفة الألوان كنخل حان صرامه. فيهن نساء بيض الوجوه نواعم الأجسام آسرات العيون يكثرن من التطيب بالعبير، ويجوس خلال الديار حائر الفكر موزع

---

(1) امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية، ص264.

القلب تختلط فى مشاعره مباهج الأمس مع حرمان اليوم، وتتداخل ذكريات الماضى مع أشواق الحاضر، وهو بها ثمل وضائع كنشوان احتسى خمراً فى صباح مبكر، خمراً معتقة كرومها فى " شبام " أو عصرت فى " عانة " ولونها كلون دم الغزال، فهى من أطيب أنواع الخمر، ما يكاد يحتسيها الشارب حتى يذهب عقله وينعقد لسانه، فيخلط فى كلامه كأنه مصاب فى بدنه "[1].

لمن الديار غشيتها بُسَحام ... فعمايتين فهضب ذى أقدام

فصفا الأطيط فصاحتين فغاضر ... تمشى النعاج بها مع الأرام

دار لهند والرباب وفرتنى ... ولميس قبل حوادث الأيام

عوجا على الطلل المحيل لأننا ... نبكى الديار كما بكى ابن خذام

أو ما ترى أظعانهن بواكرا ... كالنخل من شوكان حين صرام

حور تُعَلِّلُ بالعبير جلودها ... بيض الوجوه نواعم الأجسام

فظللت فى دمن الديار كأننى ... نشوان باكره صبوح مدام

أُنُفُ كلون دم الغزال معتق ... من خمر عانة أو كروم شبام

وكأن شاربها أصاب لسانه ... موم يخالط جسمه بسقام[2]

والنابغة الذبيانى يمر بأطلال فرتنى فى ذى حسا والفوارع وجنبى أريك والقلاع ومجتمع الأشراج ويتمكن من التعرف عليها على الرغم من مرور ستة أعوام أو سبعة، ولكنه لم يتمكن من ذلك إلا بعد جهد

---

(1) امرؤ القيس أمير الشعراء الجاهلية، ص252.

(2) المحيل: الذى أتى عليه الحول فتغير، صرام الشيء قطعه وصرام النخل جنى ثمره، أنف بضم الهمزة والنون مستأنفه أى أول ما فتقت وأخرجت من الدن، عانة: قرية بالجزيرة، شبام: قرية، موم: عله يهذى بها.

ومشقة لأن الأيام فعلت بالأماكن الأفاعيل، وماذا رأى فى أماكن المحبوبة؟ لقد رأى بقية رماد تبدو داكنة كأنها كحل العين أثاراً لا تكاد تبين لحفير مما كان يحفر حول الخيمة ليحميها من تسرب مياه السيول إلى داخلها كبقية الحوض اللاصق بالأرض، وذلك لأن الرياح الشديدة غيرت معالم المكان وتركته مخططاً بالرمال المتعرجة كأنه حصير تأنفت الصوانع فى نسجه وبسطه التجار للعرض، فلم يملك إلا الانصراف حزيناً وقد سالت دموعه على نحره فأخذ يكفكفها. يقول:

**عفا ذو حسًى من فرتنى فالفوارع ... فجنبا أريك، فالتلاع الدوافع**
**فمجتمع الأشراج غيرَّ رسمها ... مصايف مرت بعدنا ومرابع**
**توهمت آيات لها فعرفتها ... لستة أعوام وذا العام سابع**
**رماد ككحل العين لأياً أبينه ... ونؤدى كجذم الحوض أثلم خاشع**
**كأن مجر الرامسات ذيولها ... ظهر مبناة جديد سيورها يطوف بها**
**عليه حصير نقمته الصوانع ... اللُّطيمةِ، بائع على**
**على النحر منى مستهل ودامع[1] ... فكفكفت منى عبرة فرددتها**

والتمزق النفسى الذى يعانى منه عنترة بسبب ظروف البيئة الكئيبة

---

(1) ديوان النابغة الذبياني، ص78، ط: دار بيروت للطباعة والنشر، عفا: درس، ذو حسا: مكان، الفوارغ: مكان، أريك: موضع، القلاع: جمع قلعة مجرى الماء من أعلى الوادى أو ما انهبط من الوادى، الدوافع التى تدفع إلى الوادى والمعنى: لم يبق من آثارهم شيء، الأشراج: مسايل الماء من الحرة إلى السهل، المصايف: جمع مصيف من الصيف والمرابع جمع مربع من الربيع. يقول: محيت آثار هذه المواضع بكرور الأزمان من الصيف والربيع، ولأيا: جهداً ومشقة، النؤى: حفير حول الخيمة، والجذم: الأصل، أثلم: متثلم متكسر، خاشع: لاصق بالأرض، الرامسات: الرياح الشديدة الهبوب التى ترمس الأثر أى تدفنه، ذيول الريح: أواخرها أو أوائلها، غفته: زينته، المبناة هى التى يبسط عليها التاجر ما يبيعه، السيور: الاشراك، اللطيمة سوق العاطرين أو عير يحمل عليها الطيب، كفكف الدمع: مسحه، المستهل: السائل المنصب.

التى فرضت عليه الحرمان ممن أحب جعلته ينصرف عن الواقع وربط الأسباب بالمسببات إلى التعويل على الأوهام والخرافات والتطير بمنظر الغراب واتهامه بالنعيب برحيل الأحباب ومن ثم فإنه يصفه بالبشاعة وقبح المنظر ويدعو عليه بالضياع والتشرد لأنه نعى إليه الأحباب الذين جرحوا قلبه وأسهروا ليله:

**ظعن الذين فراقهم أتوقع وجرى ببنيهم الغراب الأبقع**

**خرق الجناح كأن لحيى رأسه بالأخبار هش مولع**

**فزجرته ألا يفرخ عشه أبدا ويصبح واحدا يتفجع**

**أن الذين نعيت لى بفراقهم هم أسهروا ليلى التمام فأوجعوا**[1]

- 3 -

ومن خلال البكاء على أطلال الأحبة والتعبير عما يعتمل فى قلوب الشعراء المحبين نجد الوصف الدقيق لطبيعة البادية فهى أرض فضاء شاسعة تهب عليها الرياح الشديدة من الجنوب والشمال والشرق فتدعها كالثوب البالى الملقى على الأرض وله ذيل طويل.. يقول امرؤ القيس:

**فتوضح فالمقراة لم يعفُ رسمُها لما نسَجْتها من جنوبٍ وشمألَ**

**خلاء تسح الريح فى جنباتها كساها الصبا سحق الملاء المذيل**

ومن ثم فهى أرض مخوفة توارثها الهلاك، ونزل بكل من يحلها.

---

(1) ديوان عنترة، ص48، ط: دار بيروت للطباعة والنشر، الأبقع: الأسود فيه بياض، خرق الجناح: نسل ريشه وتقطع، اللحيان: جانبا الوجه، الجلمان: مثنى جلم وهو المقراض، هش: مولع فرح أى بفرقة الأحباب، يدعو عليه بأن عشه وإن يبقى وحيداً يتفجع على أهله لأنه كان سبب الفراق.

يقول عبيد بن الأبرص:

**أرض تَوَارَثُها شُعُوبُ فكلَ من حلّها محــرُوبُ**[1]

وهذه الأرض المقفرة قد تعمر بقاطنيها حينا فإذا رحلوا عنها وخلوها صارت خراباً لا أثر فيها للحياة إلا تلك الأشياء الملقاة هنا وهناك مما لا يعبأ به كبقايا مرابط الدواب والحفير التى كانت تحفر حول الخيام يقول النابغة الذبياني:

**وقفتُ فيها أُصَيْلاناً أُسائِلُها عَيَّت جوابا وما بالربع من أحد**
**إلا الأوارىّ لأيا ما أبينها والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد**
**أمست خلاء وأمسى أهلها احتلموا أخنى عليها الذى أخنى على لبد**[2]

وليست الأوارى والنؤى فحسب، بل هناك بقايا المواقد من الحجارة المحترقة، ونبات الثمام الذى كان يستعمل فى سد خلل الديار. يقول النابغة - أيضاً - :

**فما وجدت بها شيئا ألوذ به إلا الثمام وإلا موقد النار**[3]

كما أنها عرضة للأمطار الغزيرة التى تعاون الرياح الشديدة فى محو آثارها وإزالة معالمها. يقول امرؤ القيس:

**ديار لسلمى عافيات بذى الخال ألح عليها كل أسحم هطال**

ويقول النابغة:

---

(1) جمهرة أشعار العرب، ص381 شعوب بفتح الشين وضم العين: الموت، ومحروب أى هالك.

(2) ديوان النابغة الذبياني، ص30، ط: دار بيروت للطباعة والنشر.
وأصيلان تصغير أصلان الواحد أصيل، عيت: عجزت. الربع: المنزل. الأواري: جمع أرى وهى الأخية تشد بها الدابة. المظلومة: الأرض التى حفر فيها حوض ولم تستحق ذلك. الجلد: الأرض الصلبة.

(3) ديوان النابغة، ص48، ط: دار بيروت للطباعة والنشر.

**تعاورها الأرياح ينسفن تربها وكلُّ ملِثّ ذى أهاضِيب راعد**[1]

هذه الأطلال المكونة من رمال وأحجار لا تقوى على مواجهة عوامل التعرية من الرياح وأمطار لا تكف عن تعاورها وإظهار ما انطمر منها تحت الرمال، مما يجعل الرائى يتبينه بوضوح كأنه بقايا وشم على ظاهر اليد كقول طرفة:

**لخولة أطلال ببرقة ثمهد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد**

أو كأنه سطور منقوشة فى كتاب.. كقول حائم الطائي:

**أتعرف أطلالا ونؤيا مهدَّما كخطك فى رق كتابا منمنما**

وقول المرقش الأكبر:

**الدَّارُ قفرٌ والرُّسُومُ كما رَقَّشَ فى ظَهرِ الأدِيمِ قلم**[2]

وقول سلامة بن جندل:

**لمن طللٌ مثلُ الكتابِ المنمَّق خلا عهده بين الصُّلَيبِ فمطرق**[3]

- 4 -

لقد حفل شعر الوقوف على الأطلال بالكثير من أسماء الأماكن التى اشتملت عليها الجزيرة العربية فى العصر الجاهلى وهى كثيرة جداً لايستطيع الباحث أن يحصرها إلا إذا وضع أمام عينيه جميع أشعار الجاهلين من أصحاب المعلقات وغيرهم وهى كما نعلم منها ما هو معروف

---

(1) المرجع السابق، ص43، تعاورها: تداولها وتعاقب عليها، الأرواح: الرياح، الملث: المطر يدوم أياماً، الأهاضيب جمع أهضوبة: الدفعة من المطر.

(2) الرق: الجلد يكتب عليه، منمنم: منقوش.، المفضليات، ص237.

(3) طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي، الأصمعيات، ص132.

ومنها ما هو مجهول، كما أن منها الصحيح الذى أجمع الرواة أو كادوا على صحته، ومنها المنحول الذى شكك الرواة فى نسبته إلى قائليه، وعلى سبيل الاستشهاد لا الحصر نجد أن امرأ القيس وهو أول من عرف بوقوفه وبكائه واستبكائه:

يذكر: سقط اللوى - والدخول، وحومل وتوضح والمقراة:

**قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل  بسقط اللوى بين الدخول فحومل**

**فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها  لما نسجتها من جنوب وشمأل**[1]

كما يذكر "ذا الخال" و "ميثاء محلال" و "وادى الخزامى" و "رس أو عال":[2]

**ديار لسلمى عافيات بذى الخال  ألح عليها كل أسحم هطال**

**وتحسب سلمى لا تزال ترى طلا  من الوحش أو بيضا بميثاء محلال!**

**وتحسب سلمى لا تزال كعهدنا  بوادى الخزامى أوعلى رس أوعال!**[3]

كما يذكر "بطن قو" و "عرعر" و "الأفلاج" و "تيمر" والمشقر:

**سما لك شوق بعد ما كان أقصرا  وحلت سليمى (بطن قوّ) "فعرعرا"**

**كانيّة بانت وفى الصدر وُدُّها  مجاورةً غسان والحى يعمرا**

**بعينى ظعن الحى لما تحملوا  لدى جانب الأفلاج من جنب تيمرا**

**فشبهتهم فى الآل لما تكمشوا  حدائق دوم أو سفينا مقيرا**

**أو المكرعات من نخيل ابن يامن  دوين الصفا اللائى يلين المشقرا**

---

(1) شرح المعلقات السبع للزوزنى، ص29.

(2) امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية. ص236.

(3) المرجع السابق، ص240، وتكمشوا حثوا السير المقير: المطلى بالقار.

كما يذكر فى قصيدة ثالثة: "سحام" و "عمايتين" و "هضب ذى أقدام" وصفا الأطيط، وصاحتين وغاضر.. يقول:

**لمن الديار غشيتها بسُحَام  فعمـــايتين، فهضـــب ذى أقـــدام**

**فصـفا الأطـيط فصـاحتين فغاضـر  تمشـى النعـاج بهـا مـع الأرآم**[1]

وفى قصيدة رابعة يذكر العقيق، وثنية مطرق:

**علـى إثـر حـى عامـدين لنيـةً  فحلُّوا العقيـق أو ثنيَـةَ مُطْـرِقِ**[2]

كما يذكر "عسعس" فى قصيدة خامسة:

**أَلِمَّا علـى الرَّبـع المقـيم بِعَسْعَسَا  كَـأنّى أنـادى أو أكلّـم أخرسـا**[3]

وزهير بن أبى سلمى يذكر "حومانة الدراج" و "المتثلم" والرقمتين.. يقول:

**مِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمنَة لم تكلـم  بحومانـة الدَّرّاج فالمتثلِّمِ**

**ودار لها بالرقمتين كأنهـا  مراجيع وشم فى نواشر معصمَ**[4]

كما يذكر "القفين" و "الركن" و "بطن الجو" يقول:

**كم للمنازل من عام ومـن زمن  لآل أسماء بالقفين فالركـن**

**لآل أسماء إذ هام الفؤاد بهـا  حينا وإذ هى لم تظعن ولم تبن**

**وإذ كلانا إذا حانت مفارقـة  من الديار طوى كشحا على حزن**

**فقلت والدار أحيانا يشـط بها  صرف الأمير على من كان ذا شجن**

**لصاحبى وقد زال النـهار بنـا  هل تؤنسان ببطن الجو من ظعن**[5]

---

(1) امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية. ص252، الديوان، ص56.
(2) المرجع السابق، ص254.
(3) المرجع نفسه، ص256.
(4) شرح المعلقات السبع للزوزني، ص133.
(1) المنازل والديار لأسامة بم منقذ، ص85، طوى كشحا: ولى حزينا، يشط: يبعد، صرف الأمير: تصرفه وتقلبه والأمير: المشاور، تؤنسان: تبصران.

كما يذكر "الغمرين":

**دار لأسماء بالغمرين ماثلة  كالوحى ليس بها من أهلها أرم**[1]

ويذكر أيضاً: "قنة الحجر" و "مندفع النحائت" و "ضفوى":

**لمن الديار بقنة الحجر  أقوين مذ حجج ومذدهر**[2]

**قفر بمندفع النحائت من  ضفوى أولات الضال والسدر**

والنابغة الذبيانى يذكر: "العلياء" و "السند":

**يا دار مية بالعياء فالسند  أقوت وطال عليها سالف الأمد**[3]

كما يذكر الحمآت:

**دار لنعم بالحمآت قد دثرت  لم يبق إلا رماد بين أظار**[4]

كما يذكر " عريتنات " وأعلى الجزع:

**غشيت منازلا بعرتينات  فأعلى الجزع للحىّ المُبنّ**[5]

كما يذكر "روضة نعمى" و "ذات الأساود":

**أهاجك من سعداك مغنى المعاهد بروضة نعمى فذات الأساود**[6]

كما يذكر طرفة بن العبد "برقة ثمهد":

**لخولة أطلال ببرقة ثمهدتلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد**[7]

---

(2) المنازل والديار، ص95، والوحي: الكتاب.

(3) مصادر الشعر الجاهلى، ص515. أقوين: أقفرن، والضال والسدر: نوعان من الشجر.

(4) شرح المعلقات السبع، ص292، دثرت: بليت، والأظار: الحجارة التى تنصب عليها القدور.

(5) جمهرة أشعار العرب، ص183.

(6) ديوان النابغة، ص122، المبن المقيم بهذه المنازل.

(7) ديوان النابغة، ص43، ط: دار بيروت، وراجع الجمهرة.

(1) شرح المعلقات السبع، ص91.

أما عنترة فيذكر "الجواء" و "الحزن" و "الصمان" و "المتثلم" و"عنيزتين" و "الغيلم".. يقول:

**يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحا دار عبلة واسلمي**

**وتحل عبلة بالجواء وأهلنا بالحزن فالصمان فالمتثلم**

**كيف المزار وقد تربع أهلها بعنيزتين وأهلنا بالغيلم**[1]

كما يذكر لبيد بن أبى ربيعة "منى" و "غول والرجام" ومدافع الريان:[2]

**عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غَوْلُها فَرِجامُها**

**فمدافع الريان عُرِّيَ رسمها خلقا كما ضَمِنَ الوُحِيَ سلامها**[3]

وكذلك يذكر عبيد بن الأبرص: "ملحوب" و "القطبيات" و "الذنوب" فى قوله:

**أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب**[4]

ويذكر الأعشى: "بطن الغميس" و "بادولى" و السخال وعلوية فى قوله:

**حل أهلى بطن الغميس فبادولى وحلت علوية بالسخال**[5]

ويذكر سلامة بن جندل: "الصليب، ومطرق":

**لمن طلل مثل الكتاب المنمق خلا عهده بين الصليب فمطرق**[6]

---

(2) ديوان عنترة، ص16، ط: دار بيروت للطباعة والنشر.

(3) شرح المعلقات السبع، ص159، ومنى موضع غير منى المحرم والمحل من الديار: ما حل فيه لأيام معدودة، والمقام منها: ما طالت به الإقامة، تأبد: توحش والغول والرجام، جبلان معروفات.

(4) المرجع السابق، ص159 والوحى بضم الواو وتشديد الياء: الكتابة والوحى بفتح الواو وسكون الحاء الكتاب، والسلام: جمع سلمة بكسر اللام وهى الحجر.

(5) شرح المعلقات السبع، ص330.

(6) جمهرة أشعار العرب، ص203.

(1) مصادر الشعر الجاهلى، ص82، والصليب بالصاد المشددة المضمومة واللام المفتوحة والياء الساكنة.

وبشر بن أبى خازم يذكر " الأنعم ":

**لمن الديار غَشْيِتَها بالأنعمِ تبدو معالمها كلون الأرقم[1]**

أما خداش بن زهير فيذكر: توضح، وماشن، وشعر، ورابية الجفر والنخل والعرجين وسويقة:

**أمن رسم أطلال بتوضح كالسطر فماشن من شعر فرابية الجفر**
**إلى النخل فالعرجين حول سويقة تأنس فى الأم الجوازئ والعفر[2]**

- 5 -

والبادية العربية فى الجاهلية كانت غنية بأنواع مختلفة من نباتات وأشجار البيئة الصحراوية التى ذكرها الشعراء الجاهليون فى معرض التشبيه أو الإشارة لمواقف معينة، ولم تخل مقدمات القصائد - الوقوف على الأطلال - من ذكر لبعض هذه الأشجار والنباتات، مثل النخل الذى كان من أشجار البيئة، فهو ينمو فى معظم الأماكن وتقع عليه أعين الشعراء كثيراً، ويشاهدونه صغيراً وكبيراً، محملاً بالثمرات أو خالياً منها، ولذلك شبه امرؤ القيس الظعائن التى كانت بينها ظعينة محبوبته، فى تمايلها على ظهور الإبل التى تتهادى فى مشيها بتمايل نخيل غير مثمر. يقول:

**ألا عم صباحا أيها الربع وانطق وحدث حديث الركب إن شئت واصدق**
**وحدث بأن زالت بليل حُمُولُهم كنخلٍ من الأعراض غير مُنَبَّقِ[1]**

---

(1) جمهرة أشعار العرب، ص3990 الأرقم: الحية.
(2) المرجع السابق، ص413، الرسم: الأثر، تأنس: أى ليس فيها أنيس معهن، الجوازئ التى اجتزات بالرطب من الكلأ عن الماء، والأدم: السمر، والعفر: الغبر كالتراب أى ليس فيها، مؤنس سوى هذه الوعول.

وهوادج النساء المختلفة الألوان تتمايل أيضاً فوق ظهور الجمال السريعة فتبدو من بعيد كالسفن المطلية بالقار أو حدائق الدوم أو أشجار النخيل المرتفعة التى تحيط بها المياه، وقد كثر جريدها وغزر سعفها وأوقرت بأحمال من البلح الأحمر فى منطقة المشقر الغنية بالتمر الجيد والتى يحميها الحراس بأسيافهم حتى لا ينهبها الناهبون ويستمرون فى حمايتها إلى أن ينضج الثمر ويجنى:

**بعينى ظعن الحى لما تحملوا  لدى جانب الأفلاج من جنب تيمرا**[2]
**فشبهتهم فى الآل لما تكمشوا  حدائق دوم أو سفينا مقيرا**
**أو المكرعات من نخيل ابن يامن  دوين الصفا اللائى يلين المشقرا**
**سوامق جبار أثيث فروعه  وعالين قنوانا من البسر أحمرا**
**حمته بنو الربداء من آل يامن  بأسيافهم حتى أقر وأوقرا**[3]

ومن النباتات الصحراوية التى تأكلها الإبل فى أيام الجدب "حب الخمخم" وهو حب أسود إذا أكلته الغنم قلت ألبانها[4].

يقول عنترة مصوراً فزعه لقرب رحيل المحبوبة نظراً لانتهاء المرعى بذلك المكان.

**ما راعنى إلا حمولة أهلها  وسط الديار تسف حب الخمخم**

ومنه أيضاً: البرير وهو ثمر الأراك أو المدرك معه، وكذلك المرد

---

(1) امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية، ص254.
(2) المرجع السابق، ص240، تكمشوا: حثوا السير، مقير: مطلى بالقار، مكرعات: نخيل مغروسات فى الماء، ابن يامن: شخص عرف بكثرة نخيله، الصفا والمشقر: قصران بناحية اليمامة.
(3) سوامق: مرتفعات، أثيث: غزير، قنوان: جمع قنو وهو العذق، البسر: البلح، أقر وأوقر: كمل حمله.
(4) جمهرة أشعار العرب، ص252، وشرح المعلقات السبع، ص237.

وهو ثمر الأراك أيضاً.. يقول طرفة فى تشبيه الحبيبة بالظبية التى تنفض ثمار الأراك وتتناول أطرافها بعنقها الطويل وتدخل بين الأغصان:

**وفى الحى أحوى ينقض المرد شادن  مظاهر سمطى لؤلؤ وزبرجد**[1]

**خذول تراعى ربربا بخميلة  تناول أطراف البرير وترتدى**

وكذلك النور وهو زهر الأقحوان.. يقول طرفة مصوراً ثغر المحبوبة:

**وتبسم عن ألمى كان منورا  تخلل حر الرمل ظاهره ندى**

وعنب الثعلب المسمى بحب الفنا وهو شجر له حب أحمر فيه نقط سود.. يقول زهير:

**كأن فتات العهن فى كل منزل  نزلن به حب الفنا لم يحطم**[2]

والأيهقان وهو الجرجير البرى ..

يقول لبيد فى حديثه عن المطر الذى يصيب كل شيء فى الأطلال:

**فعلا فروع الأيهقان وأطفلت  بالجلهتين ظباؤها ونعامها**[3]

والثمام وهو نبات هش تسد به الخلل بين أجزاء الخيام.. يقول لبيد مصوراً خلاء الأماكن:

**عريت وكان بها الجميع فأبكروا  منها وغُودِرَ نُؤيُها وثمامها**

ويقول النابغة الذبياني:

---

(1) المرجعان السابقان، وأحوى: فى لونه سواد وهى الظبية. المرد: ثمر الأراك. الشادن: ولد الظبية، مظاهر: مضاعف. السمط: النظم من السموط. خذول: تخلفت مع ولدها عن صواحبها. تراعي: ترعى معه. الربرب: جماعة الظباء أو البقر الوحشية. والخميلة: أرض لبنة ذات شجر. ترتدى: تدخل وسط الأغصان فتكون كالمرتدية بها. والمرد بفتح الميم وسكون الراء: ثمر الأراك.

(2) المى: فى شفته سواد، المنور، الأقحوان، حر الرمل: النقى منه.

(3) جمهرة أشعار العرب، ص252، وشرح المعلقات السبع، ص237.، الأيهقان: بضم الهاء وفتحها: الجرجير البرى، الجهلتان: الجانبان.

**فما وجدت بها شيئا ألوذ به إلا الثمام وإلا موقد النار**

والأثل وهو شجر ينبت قرب المياه أوراقه دقيقة وأزهاره عنقودية، وخشبه صلب جيد... يقول لبيد أيضاً فى حديثه عن بعد الحمول وعدم ظهور معالمها كأنها أجزاع منطقة بيشة وأشجار أثلها وصخورها العظيمة وقد أخذ الحدأة يحثونها لتسرع فى السير:

**حُفِزَتْ وَزَايَلَهَا السَّرابُ كأنها أجزاعُ بيشةَ أثْلُها وَرِضَامُها**[1]

والسدر أيضاً من أشجار البادية كالأثل والأراك، يقول خداش بن زهير مشبها حبيبته بغزالة تتقى حرارة الشمس بالأراك والسدر:

**إذا الشمس كانت رَتْوَةً من حِجَابِها تقتها لأطراف الأراكِ وبالسدرِ**[2]

وكذلك أشجار الهضاه ونبات الأرطى والضال..يقول الحطيئة مشبها امرأة بغزال يتناول أوراق العضاه ويتتبع نبات الأرطى والضال:

**تعاطى العضاه إذا طالها وتقرو من النبت أرطى وضالا**[3]

وكان أيضاً من الأشجار التى ترعاها الغزلان والأبقار الألأء.. يقول النابغة الذبياني:

**يكشفن الألاء مزينات بغاب ردينة السحم الطوال**[4]

وكان من النبات الذى تعلفه الإبل: الفصافص، يقول النابغة فى حديثه عن الناقة:

**وقارفت وهى لم تَجْرَبْ وباع لها من الفصافص بالنَّمَى سِفسيرُ**[1]

---

(1) المرجعان السابقان، وحفزت: حثت، زايلها: فارقها، بيشة: مكان.

(2) جمهرة أشعار العرب، ص414، رتوة: تمد عنقها، تقتها: اتقتاه وخِداش شاعر جاهلى بكسر الخاء وفتح الدال.

(3) جمهرة أشعار العرب، ص657، تعاطي: تمد عنقها، طالها: ارتفع عنها، تقرو: تتبع.

(4) الديوان، ص150، بكشفن: يأكلن، الألاء: شجر واحدته الاءة، غاب ردينة: الرماح شبه قروناه بالرماح طولها وسوادها.

كما نجد إشارة إلى بعض ما كان يجلب فى التجارة إلى أرض الجزيرة من الحبوب الجافة التى تتخذ فى الطعام كحب الفلفل، يقول امرؤ القيس مشبها بعر الظباء فى أطلال الديار المهجورة:

**ترى بعر الآرام فى عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل** [2]

وكان من الأزهار التى يعرفونها ولها رائحة طيبة " القرنفل ".. يقول امرؤ القيس فى أم الحويرث وجارتها أم الرباب وما لهما من رائحة طيبة:

**إذا قامتا تَضوّعَ المسك منهما نسيم الصَّبا جاءت بريَّا القرنفُلِ** [3]

.6.

والناقة كانت فى مقدمة الحيوانات التى اهتم بها شعراء الجاهلية وأكثروا الحديث عنها فى مقدمات قصائدهم... يقول ابن رشيق القيروانى فى كتابه " العمدة ": [4]

" وكانت دوابهم الإبل لكثرتها وعدم وجود غيرها، ولصبرها على التعب وقلة الماء والعلف فلهذا أيضا خصوها بالذكر دون غيرها "

وفى معلقة امرئ القيس نجده يشير إلى الناقة عندما وقف بأصحابه على الأطلال، كما يذكر نحرها للعذارى... يقول:

---

(1) الديوان، ص157، والفصافص جمع فصفصة والنمى بضم النون المشددة والميم المشددة المكسورة الدرهم فيه رصاص، والسفسير: القائم بخدمة الناقة.

(2) شرح المعلقات السبع، ص34، الخالصة البياض، والعرصات جمع عرصة وهى الساحة، والقيعان جمع قاعة وهى الساحة من الدار أيضاً.

(3) شرح المعلقات السبع، ص34، تضوع: انتشرت رائحته، الريا: الرائحة.

(4) العمدة، ج1، ص226، ط: دار الجيل للنشر والتوزيع بلبنان تحقيق محمد محيى الدين بعد الحميد.

وقوفا بها صحبى على مطيهم  يقولون لا تهلك أسى وتجمل

كما يقول:

ويوم عقرت للعذارى مطيتى  فيا عجبا من كورها المتحمل[1]

ولقد وصفها طرفة بن العبد وصفاً بارعاً فى معلقته بعد أن وقف على الأطلال ووصف مراكب معشوقته من بنى مالك... كان فى وصفه لها: الأعضاء كألواح التابوت، تشبه الجمل فى وثاقة الخلق، عظيمة الوجنات، مهزولة خفيفة الجسم من كثرة الأسفار يأمن راكبها عثارها مستوية سريعة كذكر النعام وأنها تسابق نوقاً مسرعات بخطوات منتظمة على طريق معبد، وترعى مع النوق فى رياض معشبة، كما أنها ذكية القلب ترجع إلى راعيها عندما يدعوها وتتقى ضراب الفحل بذنبها ذى الشعر الكثيف الذى يشبه شعره على جانبيه جناحى النسر واقرأ قوله:

لأُمضى الهم عند احتضاره  بعوجاء مرْقال تروح وتغتدي

أَمُونٍ كألواح الإران نسأتُها  على لا حب كأنه ظهر برجد

جمالية وجناء تردي كانها  سفنجة تبرى لأذعر أربد

---  ---

تربعت الفُقَّينِ فى الشول ترتعى  حدائق مَولىَ الأسِرَّةِ أغيدِ

تربع إلى صوت المُهيب وتَّتقى  بذى خُصَل رَوْعَات أكلف ملبد

---

(1) شرح المعلقات السبع، ص32. العذارى: الأبكار. الكلور: الرحل، المتحمل: المحمول على غيرها، يتعجب من نحرها لهن وحملهن للرحل واقتسامهن مناعة بينهن.

**كأن جناحَى مَضْرحَيٍ تكنفا حِفَافَيةٍ شكا فى العسيب بمسرد**[1]

وامتناعها على الفحل يقيها اللقاح فيظل جسمها نشيطاً موفوراً ولذلك نجد أن فخذيها مكتملى اللحم فهما يشبهان مصراعى باب قصر عال أملس، كما أن لها فقارا مطوبة متراصفة متداخلة كأن الأضلاع المتصلة أما مرفقاها فقويان شديدان بائنان عن جنبيها كَيدَّى سقاء حمل بيديه دلوين فابتعدت يداه عن جنبيه.. الخ.

**لها فخذان أكمل النحض فيهما كأنهما باب منيف ممرد**
**وطى مجال كالحَنِيّ خُلُوفهُ وأجرنه لُزت بدَأيٍ منضَّد**
**لها مرفقان أفتلان كأنها تمر بسلميّ دالج متشدد**[2]

أما لبيد فإنه يصف الناقة فيشبهها تارة بالأتان الوحشية فيقول:

**أو مُلمع وسقت لأحقب لاحه طرد الفحول وضربها وكدامها**
**يعلو بها حدب الأكام مسحج قد رابه عصيانها ووحامها**

وتارة بالبقرة الوحشية.. فيقول:

**أفتلك أم وحشية مسبوعة؟ خذلت وهادية الصوار قوامها**

---

(1) شرح المعلقات السبع، ص95 وما بعدها. عوجاء: لا تستقيم فى سيرها لشدة نشاطها. مرقال: شديدة الإرقال. أمون: يؤمن عثارها. الإران: التابوت العظيم. نسأتها: ضربتها بالمنسأة أى العصا. لاحب: طريق واضح. برجد: كساء مخطط. جمالية: تشبه الجمل فى وثاقه الخلق. وجناء: مكتنزة اللحم أو عظيمة الوجنات. تردى: تعدو، سفنجة: نعامة. تبري: تعرض. أزعر: قليل الشعر. أريد: كلون الرماد. عتاق: كريمات. ناجيات: مسرعات. الوظيف: الخف أو الساق. المور: الطريق. تربع: ترجع. روعات: فزعات: أكلف: فحل يميل إلى السواد. ملبد: متلبد الوبر. مضرجي: نسر أبيض.

(2) المرجع السابق، ص35 النحض: اللحم. منيف: قصر مرتفع. السلم: الدلو. الدالج الذى يأخذ الدلو من البئر فيفرغها فى الحوض. متشدد: قوي.

خنساء ضيعت الفرير فلم يرم عرض الشقائق طوفها وبغامها[1]

أما النابغة الذبيانى فيصفها فى سرعتها وقوتها بالثور الوحشى السريع الجرى الذى يصرع كلاب الصيد بقرنيه:

كأن رحلى وقد زال النهار بنا يوم الجليل على مستأنس وَحَدِ
من وحش وجرة موشِيٍ أكارعه طاوى المصير كسيف الصيقل الفرد
أسرت عليه من الجوزاء سارية تزجى الشمال عليه جامد البرد
فأرتاع من صوت كلاب فبات له طوع الشوامت من خوف ومن صرد
فبثهن عليه واستمر به صمع الكعوب بريئات من الحـ،،رد
وكان ضُمْرانُ منه حيث يوزعه طعن المعارك عند المُحَجرِ النجد
شك الفريصة بالمدرى فأنفذها طعن المبيطر إذ يشفى من العضد
كأنه خارجا من جنب صفحته سَفُّودُ شَرْبٍ نسوه عند مفتأد
فظل يعجم أعلى الروق منقبضا فى حالك اللون صدق غير ذى أود
لما رأى واشق اقعاص صاحبه ولا سبيل إلى عقل ولا قود
قالت له النفس إنى لا أرى طمعا وإنَّ مولاك لم يسلم ولمَ يصِدِ[2]

---

(1) الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام، ص315. ألمعت الأتان أشرف طيباها باللبن، وسقت: حملت. الأحقب: العير فى وركيه بياض. لاحه: غيره. الكدام: المكادمة من الكدم وهو العض. حدب الأكام: التلال المحدودبة. مسجح: المعضض. الوحام: الوحم وهو اشتهاء الحامل الشيء. المسبوعة: التى افترس السبع ولدها والهادية المتقدمة. الصوار: القطيع من بقر الوحش. الغرير: ولد البقرة الوحشية. لم يرم: لم يبرح. العرض: الناحية. الشقائق: جمع شقيقة وهى أرض صلبة بين رملين. البغام: صوت رقيق.

(2) وجد منفرد. وجرة: مكان. أكارعه: قوائمه، موشى: منقط. طاوي: ضامر. المصير: البطن. ارتاع: فزع. الشوامت: القوائم. الصرد: البرد. الكعوب: المفاصل من العظام. صمعاء: محددة الأطراف. الحرد: الاسترخاء. ضمران: اسم كلب. المحجر: الملجأ. النجد: الشجاع. العضد: داء يصيب العضد. المفتأد: موضع النار. يعجم: يعض. الروق: القرن. واشق: اسم كلب. المولى الصاحب.

وكما نرى تلك الأبيات، شبه النابغة ناقته بثور وحشى يخاف الناس فينظر يمنة ويسرة وهو ينتمى إلى مكان مشهور تجتمع فيه الوحوش وأنه منقط القوائم بينما بطنه أبيض شديد البياض كأنه سيف الصيقل وإلى جانب هذا البياض فإنه ضامر جداً، هطلت عليه أمطار الشتاء، وأفزعه صوت صائد أطلق عليه كلابه فلاذ بالفرار وأعانته على الجرى قوائم قوية محددة الأطراف، ولقد لاحق أحد هذه الكلاب ويسمى " ضمران " الثور بجرءة وشجاعة فكان فى ذلك عند حسن ظن صاحبه، فاتجه إليه الثور وطعنه بقرنه فى فريصته فأنفذه فيها كما يفعل البيطار بمبضعة عندما ينفذه فى عضد الدابة ليداويها، لقد كان القرن الطويل الأسود والكلب معلق به كسفود قوم يشربون الخمر ويشوون اللحم وقد تركوا السفود وعليه اللحم بجوار النار. لقد لقى الكلب ضمران مصرعه على قرن الثور ولكنه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة راح يعض أعلى القرن وهو فى شدة الوجع، فما كان من رفيقه المسمى " واثقاً " إلا أن ينجو بنفسه فقد مات صاحبه مقتولاً بلا دية ولا قصاص فلا أحرز الصيد ولا نجا بنفسه... ومثل هذا الثور كانت الناقة فى سرعتها[1].

وفى الأبيات السابقة التى وصفت بها الناقة ورد ذكر النعامة، والنسر والثور الوحشي، وكلاب الصيد كما ورد فى وصف عنترة لسيرها ذكر الهر الوحشى أو السنور، فهى فى تبخترها وسرعتها تنحى

---

(1) راجع فى ديوان النابغة قصيدة (عوجوا فحيو النعم دمنة الدار) تجد أن الناقة شبهت بثور وحشى صرع سبعة كلاب على التوالي.

جانبها الأيمن كأنها تخاف هجوم الهر الوحشى عليها من تلك الجهة فهى تنحيها، وهذا الهر الوحشى شرس عدوانى كلما هاجم الناقة من ناحية جنبها الأيمن واتجهت إليه غضبى هجم عليها وخدشها وعضها.. يقول عنترة:

**وكأنما تنأى بجانب دفها الوحشـ ـى من هزج العشى مـؤوَّم**
**هر جنيب كلما عطفت لـه غضبى اتقاها باليدين وبالفم**[1]

وقد رأينا فيما سبق كيف ورد ذكر الآرام والعين والظلاء والجآذر التى ترعى مكان ديار الأحباب المهجورة كقول امرئ القيس:

**ترى بعر الآرام فى عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل**

وقول زهير:

**بها العين والآرام يمشين خلفه وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم**

وقول المرقش الأصغر:

**تزجى به خنس الظباء سخالها جآذرها بالجو ورد وأصبح**

**كما جرى ذكر الغراب فى حديث عنترة عن حزنه لفراق أحبابه:**

**ظعن الذين فراقهم أتوقـع وجرى ببينهم الغراب الأبقع**

والحمام أيضا كان من بين الطيور التى ذكرها عنترة:

**أفمن بكاء حمامة فى أيكة ذرفت دموعك فوق ظهر المحمل**[2]

وقوله فى موطن آخر:

---

(1) شرح المعلقات السبع، ص244. الدف: الجنب. الجانب الوحشي: اليمين وسمى كذلك لأنه لا يركب من ذلك الجانب ولا ينزل، الهزج: الصوت. المؤوم: القبيح الرأس العظيمة. هر جنيب: أى مجنوب ومقود إليها. اتقاها: استقبلها والعين: الأبقار ذات الأعين الواسعة الجميلة والأطلاء جمع طلا وهو ولد البقرة أو الغزال.

(2) ديوان عنترة، ص56 والأيكة واحدة الأيك وهو الشجر الملتف الكثير والمحمل شقان على البعير يحمل فيهما العديلان.

ومسكن أهلها من بطن جزع  تبيض به مصاييف الحمام [1]

وقوله:

ولقد ناح فى الغصون حمام  فشجانى حنينه والنحيب
بات يشكو فراق ألف بعيد  وينادي: أنا الوحيد الغريب
يا حمام الغصون لو كنت مثى  عاشقا لم يرقك غصن رطيب[2]

كما يقول النابغة فى الأطلال:

أسائلها وقد سفحت دموعى  كأن مفيضهن غروب شن
بكاء حمامة تدعو هديلا  مَفجَّعَةٍ على فَنَنٍ تُغَنّى[3]

كما أن النمر بن تولب وهو شاعر جاهلى عاش حتى أدرك الإسلام. يذكر الذئب خلال حديثه عن أطلال " عمرة ":

وكم دونها من ركن طود ومهمه  وماء على أطرافه الذئب يعسل[5]

## . 7 .

ونستطيع أن نقف على كثير من عادات الجاهليين وتقاليدهم فى كثير من مواقف الحياة المختلفة من خلال قراءتنا لأشعار الوقوف على الأطلال التى نحن بصدد الحديث عنها.. وأول تلك العادات والتقاليد التى كانت تشكل عنصراً جوهرياً فى حياة أهل البادية الحل والارتحال وتتبع

---

(1) المرجع السابق، ص65 والجزع منعطف الوادى أو مكان بعينه، المصاييف: التى نتجت فى الصيف الواحد مصياف.
(2) المرجع السابق، ص100.
(3) ديوان النابغة، ص122، الهديل: زعموا أنه ذكر للحمام كان على عهد نوح ففقدته أنثاه فبكته.
(4) جمهرة أشعار العرب، ص421 والطور: الجبل والمهمة: البرية والعسلان: سير الذئب.

منابت الكلأ ومساقط الغيث ومن أجله كانت تزم الأحمال على الجمال وتركب النساء داخل هوادج، لكل فتاة هودج مستقل تحمله ناقة بدليل قول امرؤ القيس:

**ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات إنك مرجلي**

فالهودج إذن لم يكن معداً لأكثر من شخص واحد:

**تقول وقد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل**

والهودج يتكون من عصى تنصب بطريقة خاصة وتلقى فوقها أستار تقى من بداخله حرارة الشمس.. يقول لبيد:

**شاقتك ظعن الحى حين تحملوا فتنكسوا قطنا تصر خيامها**
**من كل محفوف يظل عصيَّه زوج عليه كِلةٌ وَقِرامُهَا[1]**

يقول لنفسه لقد أهاجت أشواقك رؤية الحمول على ظهور الجمال وقد اجتمعت النساء داخل هوادج عليها أستار القطن وقد أدى تحرك الإبل السريعة بها إلى حدوث صرير ينبعث من تلك الأستار والكلل التى غطت عصى الهوادج.

وهذه الهوادج عندما تسير بها الإبل تبدو من بعيد كالسفن التى تتهادى على صفحة الماء معتدلة مستوية تارة، وغير مستوية على الطريق المعتدل تارة أخرى.. يقول طرفة:

**كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد**

---

(1) معلقة لبيد: شرح المعلقات السبع، ص165 شاقتك اهاجت شوقك. ظعن الحى جمع ظعون وهو البعير عليه هودج فيه امرأة. تكنسوا: دخلوا الكناس واستكنوا به على سبيل الاستعارة وتكنسوا قطنا أى هوادج مغطاة بستائر من القطن: تصر خيامها: تحدثا صوتا بسبب إسراع الإبل والحفوف الهودج حف بالستائر. عصيه: عيدانه. الزوج: نمط من الثياب. الكلة: الستر الرقيق وكذلك القوام.

عدولية أو من سفين ابن يامن  يجور بها الملاح طوراً ويهتدي[1]

والستائر الملقاة على الهوادج مختلفة الألوان تارة تكون حمراء كلون الدم.. يقول زهير:

عَلونَ بأنماطٍ عتاقٍ وكِلَّةٍ  ورادٍ حواشيها مشاكِهَة الدم[2]

وأحياناً تكون متعددة الألوان: سوداء وحمراء وخضراء فيخيل إلى رائيها من بعيد أنها سفن مقيرة أو حدائق دوم أو نخيل لها بسر أحمر.. يقول امرؤ القيس:

فشبهتهم فى الآل لما تكمشـوا  حدائق دوم أو سفينا مقَـــيَّرا

أو المكرعات من نخيل ابن يامن  دوين الصفا اللائى يلين المشقرا

سوامق جبار أثيث فروعـــــهُ  وعالين قنوانا من البسر أحمرا[3]

والنساء المرتحلات كن يتضمخن بالطيب ويجلسن داخل الهوادج على حشايا طرية تقيهن خشونة الرحل.. يقول امرؤ القيس:

جعلن حوايا واقتعدن قعائدا  وحففن من حَوْكِ العراق المنمق

وفوق الحوايا غِزْلَةٌ وجآذر  تضمخن من مسك ذكى وزنبق[4]

ويبد أن النسوة فى ظعنهن وإقامتهن كن يمضين أوقاتهن فى

---

(1) شرح المعلقات السبع، ص92 والحدوج جمع حدج وهو الهودج والمالكية امرأة من بنى مالك والخلايا: السفن العظيمة، والسفين جمع سفينة. والنواصف جمع ناصفة وهى أماكن تتسع من نواحى الأودية. عدولية لنسبة إلى عدولى من أهل البحرين وكذلك ابن يامن. الجور: الميل عن الطريق. طوراً: تارة.

(2) شرح المعلقات السبع، ص137، علون: بأنماط الباء للتعدية أى علتهن الخ أنماط: بسط من الثياب. عتاق: كرام. كلة: ستر. حواشيها: نواحيها. مشاكهة: مشابهة.

(3) امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية، ص240.

(4) امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية، ص254.

غزل الصوف، وبطبيعة الحال كانت تتناثر منهن فتاتات عهن صغيرة فى المكان الذى ينزلن فيه، فإذا كانت هذه الفتاتات من صوف مسبوغ باللون الأحمر فإنها تبدو كحب عنب الثعلب الذى لم يحطم فيضيع لونه يقول زهير:

**كأن فتات العهن فى كل منزل  نزلن به حب الفنا لم يحطم**

**- 8 -**

والكتابة كانت شيئاً نادراً بالنسبة لعرب الجاهلية، وبخاصة هؤلاء البدو الذين يقضون أيام أعمارهم فى الحل والترحل، فإذا رأوا أحد الكاتبين الذين أتيحت لهم ظروف تعلم الكتابة بطريقة أو بأخرى أثارت خطوطه المستقيمة والمتعرجة الواضحة والباهتة أخيلتهم ونقشت فيها فلم تبرحها، وكان إعجابهم بالكتاب يجعلهم يصفونهم بأنهم ينقشون وينمقون، كما لم تبرح أخيلتهم هذه الأدوات البدائية التى يستعملها الكاتبون من جلود وحجارة أو قطع نسيج هيئت لذلك، وعندما كانت تقع أعينهم على آثار الديار وأطلالها، وهى عبارة عن أرض منبسطة من الرمال بها آثار وخطوط وأشياء متفرقة منها ما هو ظاهر ومنها ما هو مطمور ومنها ما يكون من بعيد خطوطاً متعرجة أو مستوية، فإن الذى يقفز إلى أذهانهم فوراً صورة تلك الخطوط الغامضة التى يرسمها الكاتبون على تلك الأشياء المستوية بين أيديهم.

يقول المرقش الأكبر مشبها آثار الديار بالكتابة على الأديم (الجلد):

**الدار قفر والرسوم كما  رقش فى ظهر الأديم قلم**

ويقول زهير مشبها الآثار بالكتابة على الحجارة التى كانوا يسمونها

"الوحى":

**لمن طلل كالوحى عاف منازله  عفا الرس منه فالرسيس فعاقله**

**ويقول:**

**لمن الديار غشيتها بالفدفد  كالوحى فى حجر المسيل المخلد**

ومنهم من كان يطلق لفظ الكتاب على الشيء المكتوب مطلقا.. يقول عبيد بن الأبرص:

**لمن الدار أقفرت بالجناب  غير نؤى ودمنة كالكتاب**

وقد يكتبون على قطعة قماش تطلى بشيء ثم تصقل فيسمونها ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً منى وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتها "[1] وفى ذلك نزل قوله ـ تعالى ـ: "وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا.... الخ "[2].

ولقد اشتهرت الطائف وقبيلة ثقيف خاصة بالكتابة وإتقانها منذ الجاهلية وهذا ما دعا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ " أن يجعل كتبة المصحف من قريش وثقيف، ودعا عثمان ـ رضى الله عنه ـ إلى أن يقول: اجعلوا المملى من هذيل والكاتب من ثقيف "[3].

أما أهل البادية الذين كان الحل والترحال سمة مميزة لحياتهم فإنهم لم يكونوا يعرفون الكتابة أصلاً أو لم يكن يعرفها منهم إلا قلة نادرة ممن أتاحت لهم ظروف حياتهم المضطربة المتنقلة أن يلتقوا بمن يعلمهم الكتابة.

---

(1) سيرة ابن هشام، ج1، ص383. راجع الديوان، ص21.
(2) سورة الفرقان، جزء من الآية: 5.
(3) مصادر الشعر الجاهلى، ص50 - 100.

ولقد كانت الكتابة فى الجاهلية لأغراض مختلفة، مثل كتابة العهود والمواثيق والأحلاف التى يرتبطون بها فيما بينهم أفراداً وجماعات كحلف ذى المجاز بين بكر وتغلب الذى أشار إليه الحارث بن حلزة اليشكرى بقوله فى معلقته:

**واذكروا حلف ذى المجاز وما قُدِّم فيه العهود والكُفلاء.**
**حذر الجور والتعدى وهل ينقض ما فى المهارق الأهواء[1].**

ونحن نعرف صحيفة قريش التى تعاقدوا فيها على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا ينحكوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم فلما اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم"[2].

ومما كانوا يكتبونه أيضاً الكتب الدينية التى كان يكتبها اليهود والنصارى ومن أخذ عنهم من العرب ونحن نعرف أن ورقة بن نوفل "كان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل ما شاء أن يكتب"[3].

وفى حديث سويد بن الصامت أنه قال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "لعل الذى معك مثل الذى معى فقال - صلى الله عليه وسلم -: "وما الذى معك ؟ قال: مجلة لقمان - يريد كتاباً فيه حكمة لقمان - فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "اعرضها على فعرضها فقال

---

(1) مصادر الشعر الجاهلى، ص65.
(2) المرجع السابق، ص66 وسيرة ابن هشام، ج1، ص375.
(3) مصادر الشعر الجاهلى، ص61.

له: إن هذا لكلام حسن والذى معى أفضل من هذا. قرآن أنزله الله - تعالى -، وهو هدى ونور"[1] وهذه الكتابات الدينية كانت تسمى "زبراً" ومفردها زبور ومنه قول امرؤ القيس:

**أتت حجج بعدى عليها فأصبحت  كخط زبور فى مصاحف رهبان**

كما كانت تكتب فى رقاع القماش المطلية المصقولة المعروفة باسم " المهارق".. كقول الأسود بن يعفر:

**سطور يهوديين فى مهرقيهما  مجيدين من تيماء أو أهل مدين**

هذه المهارق عرفها العرب من الفرس، وعنهم أخذوها.. يقول الحارث بن حلزة:

**لمن الديار عفون بالحبس  آياتها كمهارق الفرس**

ومما كانوا يكتبونه أيضاً " صحف المداينات " التى يسجلون فيها ديون بعضهم على بعض حتى لا تضيع أو تنكر، وعند كتابتها يحضرون كاتباً معه قلم ودواة وصحيفة ويملون عليه ما يكتبه، وعن مثل هذه المكاتبات يقول أبو ذؤيب الهذلى وهو شاعر مخضرم عاش فى الجاهلية وأدرك الإسلام، فى وصف كاتب من اليمن يكتب دَيْنَهُ على رجل آخر يثنى عليه الناس بالوفاء:

**عرفت الديار كرقم الدواة  يزبره الكاتب الحميري**
**برقم ووشى كما زخرفت  بميشمها المزدهاة الهدى**
**أدان وأنبأه الأولين  إن المدان الملى الوفي**
**فنمنم فى صحف كالرباط  فيهن أرث كتاب محى**

---

[1] المرجع السابق، وسيرة ابن هشام، ج2، ص68.

وعندما نتمعن فى الشعر الجاهلى الخاص بالأطلال نخرج بفكرة عن تقليد متفق عليه بين الشعراء وهو أن الشاعر يقف على الأطلال راكباً ناقته دون أن ينزل أو يحط رحاله، وعندما يريد ذكرها أو الحديث عنها فإنه بين أمرين:

إما أن تكون الأطلال التى يريد أن يذكرها ويقف عندها على سنن الطريق وفى هذه الحالة يقف مباشرة ويخاطب من معه بقوله قف أو قفا أو قفوا.. كقول امرئ القيس:

**قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل  بسقط اللوى بين الدخول فحومل**

وأما أن تكون هذه الأطلال بعيدة عن الطريق يحتاج من يريد الوقوف بها أن يعرج عليها ويميل عن سنن الطريق وعندئذ نجد الشاعر يقول: عوجا - أو عوجوا.. كقول النابغة الذبياني:

**عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار  ماذا تحيون من نؤى وأحجار**

لذلك وجدنا النقاد فيما بعد يعيبون على من يخالف هذا النهج كأخذهم على كثير عزة قوله:

**خليلى هذا ربع عزة فاعقلا  قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت**

فالقلوص لا تعقل إلا إذا نزل راكبها[1] .

وقد كانت هذه وقفة قصيرة مع خصائص شعر الأطلال فى القصيدة

---

[1] هامش، ص193: الأدب المقارن للدكتور / محمد غنيمى هلال.

الجاهلية، ولمزيد من التفصيل. [2]

obeikandl.com

[2] انظر فى ذلك: الوقوف على الأطلال للدكتور/ أحمد أحمد منصور، الطبعة الأولى، 1407هـ - 1987م.